

سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

٣٩

قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي

الجزء الأول

الدكتور أكرم ضياء العمري

بسم الله الرحمن الرحيم

قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي

الجزء الأول

الدكتور أكرم ضياء العمري

الطبعة الأولى

رمضان ١٤١٤ هـ

قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي

الجزء الأول

رمضان ١٤١٤ هـ

قال تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(الروم : ٩)

تقديم

بقلم : عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي جعل الأمة المسلمة أمة الرسالة الخاتمة الخالدة، وناط بها الشهادة على الناس، وقيادتهم، إلى الحق والخير، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة: ١٤٣).

فلقد خصّت الأمة المسلمة بالشهادة على الناس، والقيادة لهم، لا بسبب اللون، أو القوم، أو الجنس، والإقليم، أو سائر الفوارق القسرية الأخرى، التي لا يد للإنسان في إيجادها أو نفيها، وإنما بسبب ما تؤمن به، وتمتلكه من القيم المعيارية، المعصومة، في الكتاب والسنة، والتي تشكل لها أدوات التصويب، والتجديد، وتمنحها الإمكان الحضاري، وتحتفظ لها بخميرة النهوض، وتكسبها القدرة على معايرة الواقع، واكتشاف مواطن الخلل، وتحديد مواقع القصور، وتبيُّن أسباب التقصير.. وبسبب ما تمتلك من رصيد تجربة تاريخية حضارية، وخاصة منها مرحلة النبوة، ومجتمع خير القرون، الذي تجسده السيرة النبوية، التي تشكل الأنموذج والقدوة للفرد والأمة، في تحويل النظرية إلى ممارسة، والفكر إلى فعل، والقيم إلى برامج، وتقدم المعيار العملي، لتنزيل قيم الإسلام على الواقع، وتقويم سلوك المجتمع الإسلامي بها، وتحقيق مقاصد الدين، من

خلال عزمات البشر، تعاملاً مع السنن، والأسباب الإلهية الجارية، في الأنفس والآفاق، بعيداً عن انتظار المخلِّص، نزوعاً إلى السنن الخارقة وطلب المعجزات.

والصلاة والسلام على الشاهد، المبشر، النذير، الذي أُنزل عليه القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾(المائدة: ٤٨).. فكانت نبوته، ورسالته، معياراً للنبوات السابقة، وتصويباً لما لحقها من التحريف، والتبديل، والإخفاء، والإلغاء، والنسيان، الذي انتهت إليه أصول الرسالات السماوية جميعاً، من لدن آدم عليه السلام، والذي يقف على قمة التجربة الإنسانية التاريخية، للأنبياء مع أقوامهم، وبذلك لم تقتصر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، على الشهادة على الحاضر، ومعايرته وتقويمه بشرع الله، وإنما امتدت لتقويم التاريخ، وبيان مواطن الخلل في المسيرة البشرية، وكيفيات تعاملها مع قيم السماء، ليكون ذلك رصيداً للأمة الإسلامية، فلا تقتصر على الاعتبار بتاريخها الخاص، والانتهاء عند حدوده، وإنما طُلب إليها السير في الأرض، والتوغل في التاريخ العام، لتكتشف السنن والقوانين، التي تحكم الحياة والأحياء، وتتحقق من نفاذها، وحكمها في عملية السقوط والنهوض.. تلك السنن التي لاتحابي أحدا: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ (الفتح: ٢٣)، فتضيف تجارب إلى تجربتها، وعقولاً إلى

عقلها، وتهتدي إلى فاعلية سنن السقوط والنهوض، التي شرعها الله، وتتعظ وتعتبر بها، وتحقق الوقاية الحضارية، من التعرف إلى أسبابها، وتقدير نتائجها، استجابة لخطاب الله تعالى، وتكليفه لها بقوله:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِيْنَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِيْنَ﴾ (آل عمران: ١٣٧—١٣٨).

وبذلك نتبين: أن وظيفة الأمة المسلمة، ليست فقط تصويب الحاضر، وتقويمه بقيم الدين، وإنما استشراف الماضي، وإعادة معايرته، والاعتبار به، حماية للحاضر، وحسن بناء وتقويم المستقبل.

فالرسالة الخاتمة تعني، فيما تعني: معايرة التاريخ، وتقويم الحاضر، وتصويب التوجه إلى المستقبل، والقدرة على إنتاج النماذج، التي تظهر بالحق، لايضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله وهي على ذلك.

وبعد:

فهذا كتاب الأمة التاسع والثلاثون: (قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي) للدكتور أكرم ضياء العمري، أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، في سلسلة «كتاب الأمة»، التي يصدرها مركز البحوث والدراسات، بوزارة الأوقاف

والشؤون الإسلامية، في دولة قطر، مساهمة في استرداد شخصية المسلم المعاصر، وبناء الإنسان الصالح المصلح، للوصول إلى المجتمع الإسلامي المأمول، وتقويم سلوكه، وضبط حركته بالقيم الإسلامية، وتحقيق الوقاية الفكرية والحصانة الثقافية، وإعادة بناء المرجعية الشرعية، وتشكيل مركز الرؤية، في ضوء هدايات وعطاء الوحي، وتجارب ومكتسبات العقل، ليصبح المسلم قادراً على النقد، والتقويم، والمراجعة، وفق معايير شرعية منضبطة، فيعرف الحق، ليعرف أهله، ويزن الأشخاص بالحق، ولا يزن الحق بالأشخاص، ويمتلك الإمكانية على رؤية واكتشاف سنن الله، وقوانينه في الأنفس والآفاق، التي تحكم الحياة والأحياء، فيسخرها، بدل أن يكون مسخراً لها، ويدفع القدر بالقدر، ويعلم أن ما يلحق به من إصابات، وسقوط، وتخلف، إنما هو بسبب جنوحه عن منهج الله، أو تقصيره في استبيانه، أو غفلته عن السنن الجارية المطردة، وكيفيات التعامل معها، وتوهمه أن مسيرة الحياة، هي لون من العبث لا يحكمها قانون، ولا يضبطها نظام، ليصبح شعاره الدائم قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥).

والقضية التي نحب أن نعرض لها، ونؤكد عليها، بادىء ذي بدء: أن التاريخ بشكل عام، والتاريخ الإسلامي بشكل خاص، ليس هو التاريخ السياسي، أو تاريخ السلطة الحاكمة فقط، وإن كان يتمحور في معظمه حولها، ويتوجه بالدرجة الأولى، وبتوجيه من السلطات نفسها، إلى تسجيل وإبراز نشاطاتها. . أو بمعنى آخر:

ليس هو تاريخ الدولة، بأجهزتها المتعددة، وإنما هو تاريخ الأمة بشكل عام، وعطاؤها الحضاري، على مختلف الأصعدة: الثقافية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأخلاقية، والعلمية... الخ.

وأن من الخطأ العلمي، والمنهجي، والديني، والتربوي، الاقتصار في التأريخ على الجانب السياسي، سواء في ذلك كتابة التاريخ، أو قراءته، أو تقويمه، وبخاصة تلك الفترات التي ينفصل فيها السلطان عن القرآن، أو تنفصل الدولة عن الأمة، أو تغيب المبادىء والقيم والعقائد، عن السياسات، والدول، والحكومات.

لذلك نقول: إنه من الخطأ المنهجي، والموضوعي، الاقتصار على تاريخ الحكام، والأمراء، والخلفاء، وتغييب تاريخ المجددين، والمصلحين، والعلماء العاملين، والطوائف التي تحمل الحق وتظهر به، وتدافع عنه، وتتولى حسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتحقيق الرقابة العامة في الأمة.

كما أن من الخطأ التربوي، والثقافي، والديني، أيضاً، الاقتصار على إبراز الجوانب المشرقة، وتضخيمها في التاريخ الإسلامي، وتصوير مجتمع المسلمين، على أنه مجتمع ملائكة معصومين عن الخطأ، وتغييب، أو إسقاط فترات الانكسار، والهزيمة، والسقوط، التي قد تمثل النقاط السوداء، والسلبية، في مسيرة الأمة، إذا ما تمت معايرتها بالقيم، وإن كانت مساحتها في التاريخ الإسلامي، لاتكاد تذكر أمام الإنجازات العظيمة، والعطاء الحضاري الإنساني.

ذلك أن حاجتنا إلى معرفة الشر، ودراسة أسبابه، مخافة أن تدركنا، قد لاتقل أهمية في المجال التربوي، والثقافي، وإعادة البناء للحاضر، والاستشراف للمستقبل، عن حاجتنا إلى معرفة أسباب النهوض، وجوانب القوة، وعوامل الحصانة والصمود، لممارستها وتمثلها.

إن التاريخ هو وعاء لفعل الأمة، وتسجيل لحركتها، ومدى فهمها لقيمها، واستجابتها لها، وقدرتها على تنزيلها على الواقع. وهذا الوعاء لابد أن يسجل بأمانة ودقة ومسؤولية، حتى تواريخ الجماعات، والفرق الخارجة على النظام السياسي، ودراسة أسباب خروجها، وتقويمه، وتاريخ حركات التغيير، ومنطلقاتها، وأهدافها، ووسائلها، وأسباب إخفاقها وعجزها. ذلك أن الانحياز العاطفي للتاريخ الإسلامي، بسلبياته وإيجابياته، ومحاولة إيجاد المسوغات والمبررات العاطفية، والحماسية، غير الموضوعية، وغير العلمية، لبعض السلبيات، والإحجام، أو عدم القدرة على تقويم ذلك ومعايرته، من خلال القيم المعصومة في الكتاب والسنة، وتحقيق الاعتبار به، سوف يساهم باستمرار حالة الركود، والتخلف، والاستنقاع الحضاري، التي نعاني منها على مختلف الأصعدة، بعيداً عن إضافة التجارب إلى تجربتنا والأعمار إلى عمرنا، والعقول إلى عقلنا.

فقراءة التاريخ، دون القدرة على دراسته، وتقويمه بشجاعة وأمانة وموضوعية، لاتمنحنا الرؤية الكافية لقوانين السقوط والنهوض، ولاتمنحنا التبين، والاهتداء، والاتعاظ، والوقاية الحضارية، التي

أشار إليها قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِيْن * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِيْنَ﴾ (آل عمران: ١٣٧ـ١٣٨).

إن النتائج السلبية، والإحباطات، التي تترتب على فلسفة التبرير، والتستر على بعض الإصابات والانحرافات، التي حدثت في التاريخ الإسلامي، تفوق بكثير الفوائد الموهومة، من الناحية التربوية.. فإذا كان الحاضر هو مستقبل الماضي، وكان الماضي بمجموعه، متألقاً وسديداً، والحاضر لا خطأ فيه، يصبح السؤال المطروح والمعلق بدون إجابة شافية: لماذا انتهينا إلى ما نحن عليه؟!.

ولعل عقلية الانحياز العاطفي للتاريخ الإسلامي، والتستر على بعض إصابات المجتمع الإسلامي وجنوحه، وانحرافاته، ومحاولات تبرير وتسويغ الخطأ والانحراف، أدى إلى لون من التشكيل الثقافي والتربوي الخطأ.. أدى إلى تشكيل عقلية التستر على أخطاء وانحرافات الكثير من ممارسات مؤسسات وتنظيمات العمل الإسلامي، باسم حماية الصف من التشويش، والخلخلة، والاضطراب، والحيلولة دون تبصير الأعداء بأخطائنا، حتى لاينفذوا منها إلينا، إلى درجة جعلت هذه العقلية تتوضع مع الأخطاء، التي ما تزال تشكل ألغاماً موقوتة، في جسم العمل الإسلامي يمكن أن تقضي عليه.

والأمر المقلق حقاً، أو المعادلة الصعبة أمام الإنسان المسلم اليوم: إذا كانت كل ممارساتنا صحيحة، ومعصومة عن الخطأ، وأنها جاءت صواباً محضاً، فما معنى التردي المستمر، في جوانب كثيرة من حياتنا؟! هل لأننا مسلمون تلحق بنا الإصابات، مع أننا نحسن العمل؟!.

إن مخاطر استمرار السكوت عن الأخطاء، والتستر عليها، ومحاولات تسويغها، وعدم كشفها، ومعالجتها، تحت شتى المعاذير، من: الحفاظ على وحدة الصف، وقوته، وعدم تبصير العدو بمواطن الضعف، كان ولا يزال وراء الكثير من نكباتنا وإحباطاتنا.. وليس ذلك فقط، وإنما تكريس الخطأ، واستمراره، وتكراره.

إن الأجيال القادمة سوف تقع بالإصابات نفسها، لأننا لم نعطها الدليل، ونبين لها سبب السقوط.

ونعتقد أن عمليات التصويب والتقويم، وكشف الخطأ، إذا ما وزنت بمردودها وفوائدها النهائية، يمكن أن تتمخض خيراً، وتتحول إلى نعم على المدى البعيد، للصف الذي ننشد وحدته وقوته، ذلك أن الصف الذي لايحتمل معالجة الخطأ، ولا يمتلك القدرة على تجاوزه، ومعالجته، هو صف لايوثق به ابتداء، إضافة إلى أن ذريعة تبصير الأعداء بمواطن الضعف، هي ذريعة باطلة، خاصة إذا ما عرفنا أن عدونا أعرف بأخطائنا منا، وأنه قد يكون وراء صنع الكثير منها، وتشجيع عقلية التستر عليها، وأن من مصلحته تكريسها واستمرارها، وأننا بالدرجة الأولى والنهائية، أمة دعوة، نخاطب الناس جميعاً، المؤمن منهم والكافر، وليس لدينا ما نخاف منه، أو

عليـه، حتى أننـا لنعتقد أن الاعتراف بـالخطأ والعـودة إلى الحق، من أكثر وسائل الدعوة تأثيراً. . فالإسلام ليس حكراً علينا، ولم يبدأ بنا، ولن ينتهي عندنا.

فالتـاريخ هو في نهاية المطاف فعل إنسـاني، فردي وجماعي، يجري عليـه الخطأ والصواب، والسقـوط والارتقاء، والضعف والقـوة. . والإفادة من التاريخ، إنما تكـون بالقدرة على معايرتـه، وبيان مواطن الضعف، والانحراف فيـه، وتحديد أسبـابهما، واكتشاف السنن التي تحكم الحياة والأحياء، لتحقيق الـدرس والعبرة، للوصول من ثمّ إلى الحصـانـة الحضـاريـة ــ كما أسلفنـا ــ وتحقيق الاستجـابـة للتكليف الشرعي، أو الأداء للفرض الكفائي. .

وقـد يكـون من الخير العميم، والتميـز الـذي اختُصت بـه الأمـة المسلمة، والذي ضمن لها الخلود والاستمرار، وجود المعايير الثابتة، الضابطة، والمعصومة، لمسيرة العقل الإنساني، والفعل البشري، من خلال معـرفة الـوحي في الكتاب والسنة، كقيم معيـارية خـارجة عن وضع الإنسان، غير منحـازة لفعله، أو تبريره، وغير متأثرة بتكـوينه وظـروفـه، والتي يمكن مـن خـلالها تبين المنطلقـات، والمقـاصـد، والأهـداف، والممارسات للفعل الإنسـاني، والتبصر ببعض النماذج، من الوسـائل المشروعة، كدليل عمل. . كما يمكن من خـلالها تحديد مــواطن الخطأ والصـواب، والســداد والانحـراف، والتعــرف إلى أسبـابهما، وكيفيــة التعـامـل مع آثـارهما. لــذلك تأتي الــدراسـة والتقـويم، من خلال قيم الكتـاب والسنَّة، عمليـة منهجية، لاتتأثـر نتائجها، ولا مناهجها، بالإنسان صاحب الفعل، الذي ينحاز بطبعه

إلى فعله، ويحاول الدفاع عنه، أو التستر عليه.. إنها دراسة منهجية، محكومة بقيم معصومة ثابتة، وليست محاولة مذهبية، تتحكم فيها فلسفات الإنسان نفسه، بحيث يصبح فعله هو محل البحث، ويصبح هو وسيلة هذا البحث وأداته.

وفي تقديري أننا لو أدركنا تماماً هذا التكليف الشرعي، الذي يدعو إلى الكشف، والمعايرة، والاهتداء إلى السنن، من خلال القيم المعيارية المعصومة، في الكتاب والسنة، بعيداً عن الأهواء والرغبات، لكان ذلك سبيلاً إلى قوة الصف، ووحدة وتماسك النسيج الاجتماعي للأمة، والجماعات، والتنظيمات الإسلامية، ومحاصرة للخطأ، وسد الطريق أمام العدو.. لكن أخشى أن أقول: إن الكثير منا ــ إلا من رحم الله ـ عند المعايرة المطلوبة، ومن خلال عقلية التبرير والتسويغ الشائعة، انعكست عنده المعادلة، فأصبح يعرف الحق بالأشخاص، ولا يعرف الأشخاص بالحق.. يعاير القيم بالفعل البشري، ويؤول على هواه، ولا يعاير الفعل والسلوك بالقيم.. لذلك يستمر الارتكاس، والتردي، والتراجع، وتستمر عملية العبث بالقيم، وتفصيلها على الواقع، لتسويغه، لا لتصويب الواقع بها.

والأمر الذي لابد من التوقف عنده قليلا: أن التقويم، والدراسة، والمعايرة، لم تتوقف لحظة واحدة في فترة السيرة، التي تمثل المجتمع القدوة، حتى في أشد حالات السقوط والهزيمة، وأفضل لحظات النصر، والظفر، على الرغم من أن المجتمع الأول، كان بقيادة النبوة، وحراسة الوحي، وتسديده، لكن أريد له أن يكون مجتمع البشر، وفعل البشر، وعزمات البشر، وأخطاء البشر،

ليكون ذلك أنموذجاً يحتذى في المعايرة، والدراسة، والتقويم، والقدرة على التعامل مع القيم، وتنزيلها على الواقع، وتحقيقها من خلال عزمات البشر.

فإذا كان مجتمع النبوة، محلاً للمعايرة، والمناصحة، والنقد، والتقويم، وأن هذه المراجعة والتقويم والمعايرة بالقيم، لم تتوقف في الأحوال كلها، سواء في ذلك مراحل النصر، أو الهزيمة، وكانت بمثابة الحراسة الدائمة لاستمرار وسلامة قيم المجتمع الإسلامي، وكانت تكليفاً لعموم الأمة، يقوم بها كل مسلم بقدر وسعه، ووسيلته المشروعة، فأين مجتمعنا، وأعمالنا الإسلامية اليوم، من ذلك؟! فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم).. فأضعف الإيمان هو: المقاومة السلبية للمنكر، وعدم السقوط به، والتستر عليه.. ويقول أيضاً: «إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» (رواه أبو داود والترمذي وغيرهما).. ويجيب أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها عندما سألته: أنهلك وفينا الصالحون؟ قائلاً: «نعم إذا كثر الخبث» (رواه مسلم).. ذلك أن الفتن والبلاءات لا تقتصر على الظالمين فقط، وإنما تصيب الأمة جميعها، لقبولها بالظلم والانحراف، وقعود الصالحين عن مدافعته، ومواجهته بما يستطيعون.

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

مِنكُمْ خَآصَّةً . . ﴾(الأنفال : ٢٥).

لقد بلغ أمر المناصحة، والمراجعة، والنقد، والتقويم، لحراسة القيم الإسلامية، والمجتمع الإسلامي ، مرتبة يمكن أن نقول معها : إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واستمرار المعايرة للواقع بالقيم، هذه المسؤولية الوسيلة، أصبحت من القيم نفسها، وارتقت إلى مرتبتها . . أصبح ذلك من التدين السليم، الذي تتميز به الأمة المسلمة، ويكون سبباً في خيريتها، ولم يعد وسيلة لحماية القيم وحراستها، وضمان شيوعها واستمرارها في المجتمع، فقط، يقول تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ (آل عمران : ١١٠).

صحيح بأن وسائلنا وأساليبنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو بما يسمى الرقابة العامة لقيم المجتمع، لم تتطور، ولم تتأصل، وتتأسس، وتبنى في مؤسسات التعليم والتربية بالشكل المطلوب، كما هي الحال في البلدان الأخرى، التي تأصلت فيها أنظمةالرقابة المالية والإدارية، والقضائية، والإعلامية، وأصبح لها مؤسسات متخصصة، وأقسام في المعاهد والجامعات، لإعداد المتخصصين في ذلك، إلى درجة أصبحوا يعتبرون معها الإعلام المقروء، والمسموع، والمرئي، يشكل السلطة الرابعة، لأهميته وقدرته، وما يمكن أن يقوم به من الرقابة العامة على المجتمع، وممارسات أفراده وأدائهم، حتى ليكاد يصبح السلطة المؤثرة الأولى، التي تراقب أداء السلطات : التنفيذية، والتشريعية، والقضائية،

وحتى التعليمية . . وأن هذه القيم ، التي لم تمتد عندنا بالشكل المطلوب ، بدأت تغيب ، وتتراجع ، وتضعف ، وتحاصر ، وتأخذ أشكالاً قد تكون بدائية ، وعفوية ، أو فردية ، بسبب غياب التأصيل والتأسيس لها في المجتمع الإسلامي ، وخاصة على مستوى الأنظمة السياسية الحاكمة في العالم الإسلامي ، التي لا تريد أن تضبط مسيرتها ، أو تحاسب على ممارساتها . . لكن صحيح أيضاً بأن هذه القيم ، لاتزال تعيش في ضمير الأمة المسلمة ، وتضمن تماسكها واستمرارها ، وتظهر بها جماعات وأفراد ، لأن غيابها الكامل يتنافى مع خاتمية وخلود الرسالة الإسلامية .

ولعلي أقول هنا : قد يكون من أهم الخصائص ، التي تتمتع بها ، أو تتميز بها ، الحضارة المعاصرة الغالبة ، على الرغم من كل إصاباتها ، إنها تحاول أن تكتشف أخطاءها بنفسها ، وتعالج نفسها بنفسها ؛ وأن صيحات التحذير التي تبين الانحراف ، وتحذر منه ، لاتتوقف ؛ وأن دراسة الظواهر الاجتماعية ، والتوجهات المجتمعية في مراكز البحوث ، وإصدار الدراسات ، التي تحاول معالجة الخطأ ، وتسديد المسيرة ، مستمرة ودائبة ، بل هي اليوم جزء من جسم الأمة ، حتى أنها في كثير من الأحيان ، تتمتع بالاستقلالية الكاملة عن جسم مؤسسات المجتمع العاملة ، حتى لاتتأثر بأخطائها ، وتمتلك القدرة على الرؤية من خارج النسق اليومي .

إن مؤسسات الرقابة العامة لقيم المجتمع عندهم ، أصبحت قادرة على أن تسلط الأضواء ، وتمارس النقد ، لكل انحراف ، وتقصير ، وتقف بالمرصاد لكل تصرف ، وتقوم بالاستبيانات ،

والاستطلاعـات، والإحصاءات، التي تمكنهـا من أداء وظيفتها، إلى درجـة أصبحت معهـا اليـوم ،ليسـت قـادرة على تقـويم الانحـراف فحسب، بل تمتلك القـدرة على إلغائه، وإسقـاط صاحبـه، هذا على الرغم مما يداخل ذلك، من تحكم وتوجيه، في لعبة الصراع، والتدافع السيـاسي، وغيـاب الضمير الـديني، والـوازع الـداخلي، لمثل هـذه المؤسسات في الحضارة الغربية الغالبـة، التي قد تتسرب إليها البلايا، بسبب غيـاب الـوازع الـداخلي، وانعـدام قيم الثـواب والعقـاب. . فكيف يمكن أن يكـون عليــه الحال، لـو أن المسلمين استطـاعـوا أن يـؤسسوا ويـؤصلوا قيم المنـاصحة، والمراجعـة، والنقد، والـرقابـة العامة، والارتقاء بوسائل حسبـة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتقدموا للعالم بأنموذج المجتمع المتميـز بالقيم المعصومة من الوحي، التي تحقق إنسانية الإنسان؟!

وقد يكون من المفيد، أن نورد بعض الأمثلة، والنماذج، لعمليات التقويم، والنقد، والمراجعة، من مجتمع القدوة، الذي تقوده النبوة، ويحرسـه الـوحي، لنبطل حجج أصحـاب فلسفـة التبريـر والتستر، ولنتبين أن ذلك لم يتوقف لحظة واحدة، لأنـه جزء لايتجزأ من عملية بنـاء الأمة، وتسـديد مسيرتها، ولنبين أيضـا خطـورة غياب النقـد، والتقويم، والمراجعة، وما يؤدي ذلك إليه من الجنوح، والانحراف، وتكـرار الخطأ، وتكـريسه، ونبين أن الادعـاء بأن ذلك الغيـاب، أو التغييب، تـديُّن وغيرة على الإسـلام، وقيمـه، هـو تفكير معـوج، وتـدين مغشوش، واعتـذارات، وانحرافـات عن الجادة، يمكن أن تكون أقبح من الذنوب، والمعاصي نفسها.

وسوف نكتفي بثلاثة نماذج فقط، حيث أننا نعتبر ـ بلا مغالاة ـ أن آيات القرآن كلها، إنما جاءت لتقويم سلوك المجتمع، بقيم الإسلام، واستمرار حراستها.

● ففي غزوة أحد، حيث الرسول صلى الله عليه وسلم هو القائد، والصحابة هم الجنود، وهم أبناء مجتمع خير القرون، والمواجهة مع الكفار والوثنيين، وحيث الهزيمة بلغت أوجها، ونالت أبعاداً خطيرة من النفوس والقلوب، وعلا صوت الكفر : (أعل هبل) ، وأشيع قتل الرسول صلى الله عليه وسلم، وتزلزل الإيمان عند بعض المسلمين، وكان المسلمون أحوج ما يكونون لوحدة الصف، وتماسك القوة. . . مع ذلك، نزلت الآيات لتقويم الحال، وبيان الأسباب، التي أدت إلى هذه النتائج، والتي لم تقتصر على رصد الظواهر التي يبصرها الناس، وإنما تجاوزت إلى بيان دخائل النفوس التي كانت سبباً لهذه الظواهر. . تلك الآيات التي ما نزال نتلوها، ونتعبد بها، دون أن تكون عندنا المقدرة الكاملة ـ مع الأسف ـ للامتداد بمقاصدها ووظائفها في حياتنا، وكأنها أصبحت اليوم تتلى للتبرك فقط، يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بإذنه حَتَّى إِذَا فَشِلْتُم وَتَنَازَعْتُم فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ، منكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ

في أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ، قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لله، يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا، قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٥٢ — ١٥٥).

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٦٥).

ولابد لنا هنا من وقفة للتأمل والتفكر: فالتنازع في الأمر، والعصيان، وعدم الطاعة، وإرادة الدنيا، والظن بالله غير الحق، والإخفاء في النفس غير الإظهار للناس، واستزلال الشيطان، والوقوع في إغراءاته.. الخ، هي مجموعة قضايا، وإصابات، ومقدمات أدت إلى الهزيمة. وهي لاتخرج هنا عن أهمية إلقاء بعض الأضواء، وفتح بعض النوافذ.. لكن حتى تدرك الصورة كاملة،

لابد من التمعن في الآيـات كلها، ودراسة أسباب نـزولها بالتفصيل، في مكـانها مـن سـورة آل عمـران. . إنها تعتبر أعلى درجـات النقـد ، والتقويم، والمراجعة، لأرقى المجتمعات، وأكثرها خيرية، في أشد الظروف حـراجة ودقة، وخطـورة، حتى لقد قال بعض الصحـابة، رضوان الله عليهم: مـا كنا نعلم أن فينا من يـريد الدنيـا، حتى نزول الآيات!!

وبعد هذا، ألا يحق لنا أن نقول: إن النقد، والتقويم، والمراجعة، تكليف شرعي، ودين من الـدين؟ وأن أية جماعـة، أو مؤسسـة، أو تنظيم، أومجتمع، بعـد مجتمع النبـوة، لايجوز شرعـاً ولا عقـلاً، أن يكون فوق النقد والتقويم، لأنه الأحوج إلى ذلك؟ إن مجتمع النبوة، كان يمكن أن يكتفي بتسـديد الـوحي، وحراسته، وعصمـة النبوة، لكن كيف يمكن له أن يشكل أنمـوذجاً للمجتمعات القادمـة فيما بعد انقطـاع الوحي؟ كيف يمكن لمجتمـع معصوم عن الخطأ، أن يكـون أنموذجاً لمجتمع يجري عليه الخطأ والصواب؟.

لذلك نرى أن العدول عن النقد، والتقويم، باسم الدين، هو نوع من التدين المغشوش، والتفكير المعوج، كما أسلفنا.

● ولنأخذ مثالاً آخر من مواقـع النصر، في معركة الفرقان، التي كان لها مـا ليس لغيرها من المعـارك والانتصارات، والتي اتجه بعـدها أمر الدين، وتجاوز القنطرة، كما يقال. . ومُـنـحَ أصحابها ما لم يمنحه أحد من المسلمين، ولنذكـر هنا قولة الـرسولَ ﴿ﷺ﴾ لعمر رضي الله عنه: «ما يدريك لعل الله اطلع على أصحاب أهل بدر فقال: «اعملوا

مـا شئتم فقد غفـرت لكم» (السيرة النبويـة لابن هشام، جـ ٤، ص ٤١). . «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم، لاتعبد» (السيرة النبوية لابن هشام، جـ ٢، ص ٢٧٩). هذه أقوال النبوة فيهم.

ولنتابع التأمل في بعض الآيات. .

يقول تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ (الأنفال: ٥).

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٧).

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٧).

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ (الأنفال: ١٠).

﴿قُلِ الأَنفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (الأنفال: ١).

يقـول عبادة بن الصـامت رضي الله عنه: اختلفنـا في غنائم بـدر، حتى كادت تسـوء أخلاقنا، فنـزعها الله منا، وجعل أمـر قسمتها لله والرسول.

ولما ظن بعض الصحـابـة من الشبـاب، أن النصر كـان بمهـارتهم وشجـاعتهم، وبعض الصحـابـة من الشيـوخ أنـه كـان بخطتهم وحكمتهم، قـال تعـالى: ﴿فلم تقتلـوهم، ولكـن الله قتلهم، ومـا

رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ . . ﴿ومـا النصر إلا من عنـد الله﴾ أليس هـذا أرقى أنـواع التقـويم، ووضـع الضـوابط، وتقـويم النفـوس، والعقول، وتعميرهـا بالإيمان في حـالات الظفر، ونشـوة الانتصار، والحفاظ على قيم الإسلام الأصليـة، حتى لاتزل قدم بعد ثبوتها؟

● وليس الحال في معـركـة حنين بأقل شأناً، حيـث لانزال نقـرأ قـوله تعـالى: ﴿وَيَـوْمَ حُنَيْـنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَـثْـرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْـئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُـمُ الأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُـدْبِـرِينَ . . ﴾ (التـوبـة: ٢٥) . . وهكـذا تستمـر الحراسـة العـامـة في كل حال، ومـوقف، ولاتقتصر على المجـال السيـاسي، أو العسكـري، وإنما تستغـرق المجـالات: الثقـافيـة، والاجتماعيـة، والاقتصـاديـة، وحـراستهـا، والظهـور بها، حتى لاتغيب قيم المجتمع الإسـلامي، الذي يعتبر استمرار قيمه، من لوازم الرسالة الخاتمة الخالدة، والظهور بها، من لوازم أمة الرسالة الخاتمة.

ولا يخفى، أن التاريخ الإسلامي، أو حـركة المجتمع الإسلامي، هي في الحقيقـة، تمثل استجابـة المسلمين لقيم الدين، وانفعـالهم بها، وتجسيدها في الـواقع . . وهذا التنزيل قد يصيب، وقـد يخطىء، وقد يختلط فيـه الخطأ بـالصـواب، وتسـود تقـاليـد اجتماعيـة، وتترسب عادات، وتغيب تعاليم سماوية، ويضعف الالتزام بها، وتضيق دائرة الطـائفـة القـائمـة على الحق، التي تظهـر بـه، أو تتسع بين فترات السقوط، والنهوض، لكن في النهاية، يبقى التاريخ الإسلامي، فعل

بشري، اجتهادي، متجسد في برامج عمل، في إطار القيم المعصومة، يمكن أن يلحق بهذه البرامج والاجتهادات، الضعف، والجنوح، والرفض في بعض المراحل، لذلك لايمكن بحال من الأحوال أن يصبح التاريخ الذي هو اجتهاد بشري، يجري عليه الخطأ والصواب، هو المعيار، ومصدر التشريع للأحكام، والتنزيل للقيم على الواقع، وإنما هو مصدر للدرس، والعبرة، والعظة، واختبار التجارب، ميدانياً للتعرف إلى القوانين والسنن، التي تحكم حركة المجتمعات، في سقوطها ونهوضها.. فالمعيار ومصدر التشريع، إنما يتمثل ويتوحد دائماً، في القيم المعصومة، في الكتاب والسنة، ويستمد من معرفة الوحي.

وهنا قضية لابد من لفت النظر إليها، والتوقف عندها قليلاً، وهي أن السيرة النبوية، على الرغم من أنها تمثل من الناحية الزمانية، مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، إلا أنها تتميز عنه بأنها تنزيل للقيم على الواقع، وبيان عملي تطبيقي لقيم الكتاب والسنة من قبل المعصوم عن الخطأ، وبحراسة الوحي.. ومن هنا، تتميز السيرة النبوية، بأنها مصدر للتشريع والأحكام، لأنها تعتبر من السنة، سواءً كانت من فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، أو من إقراره لفعل الصحابة.. كما أنها تعتبر فترة القدوة، أو المعيار العملي، لتنزيل الإسلام على الواقع، ووسيلة الإيضاح المعينة على التنزيل، والتي هي أشبه ما تكون بالتجربة المخبرية، التي تمكن من الامتداد بالأحكام الشرعية، وكيفيات التعامل معها، وتجسيدها في الواقع، وتحقيق انفعال الناس بها، وتمثلها في حياتهم.

ولحكمة يريدها الله سبحانه ـ ولعل ذلك من لوازم وأسباب حفظ الذكر ـ بقاء وحفظ قيم الدين وتطبيقاته المعصومة، في زمن النبوة والخلافة الراشدة، لتبقي هي المعيار، دون سواها من فترات التاريخ الإسلامي، وذلك بسبب انقطاع الرشد بشكله الشامل، وتعرض مسيرة المجتمع الإسلامي، وتاريخه، لسنن التدافع البشري، والتداول الحضاري، والسقوط والنهوض، ليصبح مصدر عبرة وعظة، ووقاية حضارية.. وتبقى فترة السيرة والخلافة الراشدة وحدها تمثل المعيار.

وقد تكون المشكلة اليوم، في رد فعل بعض الباحثين، على العطالة، وانطفاء الفاعلية، التي يعاني منها مسلمو اليوم، الذي قادهم إلى المغالاة في اعتبار التاريخ، هو المختبر الحقيقي للقيم والمبادىء، ووسيلة لاكتشاف صوابها من خطئها، إلى درجة قد يجازف معها، ويتجاوز النصوص في الكتاب والسنة، ومقاصدها.. وأكثر من ذلك، فقد ذهب إلى اعتبار التاريخ مصدراً للمعرفة، وليس النص، وكأن الأمرين متقابلان، حيث يقول: (إن القرآن حسم موضوع المعرفة.. بأن جعل المرجع الذي يحسم الموضوع كله قوله:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾

(العنكبوت: ٢٠).. ويتابع القول: إن المرجع في كيفية بدء الخلق كله، ومنه خلق الإنسان، مرجعه ليس النص، بل النص يردنا إلى البحث في الأرض).

والكلام غريب وعجيب، ومحل نظر، وسوف لانتكلم عن القيمة

العلمية والوثائقية للنصوص التـاريخية، التي سوف تشكل لنا مصدراً للمعرفـة في زعمه، بل نقـول: إن القرآن حتى من النـاحية التـاريخية والوثائقية ـ وليس من الناحية الدينية فقط ـ يشكل أقدم وثيقة تاريخية تفيـد علم اليقين، لما تـوفـر لها من منهج النقل المتـواتـر.. فهـو بهذا الاعتبار، مُقـدم وثائقيـاً على النص التاريخي.. ونحن هنـا لا نرفض المعرفة التي يمنحها لنا التاريخ، فهو مصدر للتعرف على أحوال الأمم السابقة، واكتشـاف قوانين الحركة الاجتماعية، لكن نـرى أن التاريخ لا يرقى ليصبح حكماً على النص المعصوم، ومختبراً له.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يمكن أن نطرح السؤال التالي: مـا قيمـة النصـوص في الكتـاب والسنـة، التي قـررت، وبينت بـالتفصيل: كيف بدأ الخلق، وكشفت عن تطـور مراحلـه، ثم كيف ينشىء الله النشأة الآخرة، كمعـرفة معصومـة، من الوحي، ومن ثم طلبت معـرفـة الـوحـي (النصـوص نفسهـا)، من الإنسـان السير في الأرض، للتحقق، وتحصيل اليقين؟!

فـالمعـرفـة بـدأت من الـوحي، من السماء.. والسير في الأرض (التاريخ) طُلب للتأكد، والبرهنة، ورؤيـة الآيات، واكتشاف قوانين وسنـن التسخير، قـال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣).. لذلك رأينـا، ولا نـزال نـرى: أن السـائرين في الأرض (التاريخ) بلا دليل الوحي، ومعرفة الوحي، وقعوا بتناقضات، وتخبطات، ونظريات لا نهاية لها.

والأمر الذي نريد إيضاحه هنا: أن التاريخ، هو بحق الأب الحقيقي للعلوم الاجتماعية، والوسيلة التي تمكن من اكتشاف سنن، وقوانين الاجتماع والعمران، التي تعتبر المؤثر في حركة الحياة، من خلال حرية الإنسان واختياره، وفعله، حيث رتب الله نفاذ سنن التغيير بإرادة الإنسان واختياره، فقال تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾.. والفاعل في قوله تعالى: ﴿لا يغير﴾ يعود على الله سبحانه.. وفي قوله تعالى: ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ نرى أن الفاعل في ﴿يغيروا﴾ هو الإنسان، وكأن سنن التغيير التي شرعها الله، ربط نفاذها باختيار الإنسان.. فالكثير من السنن الاجتماعية في الأنفس، لا يمكن التحققِ منها في الحاضر، الذي سوف نعلم نبأه بعد حين، قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص: ٨٨).. ليس ذلك لأن الإنسان أداة البحث، وفعله، ومَحلّه فقط، وإنما لأن طبيعة السنن تقتضي زمنًا وبطئًا في تحولها وتحققها، على خلاف قوانين المادة، وأن المصدر الوحيد للتعرف عليها، وكشفها، والتيقن منها، هو التاريخ، وأن النص في الكتاب والسنة، أشار إلى بعضها، وطلب من الإنسان السير في الأرض للتحقق والتأكد من نفاذها في الأمم السابقة، لأن الحاضر لا يحقق ذلك، ولحث الإنسان على اكتشاف قوانين وسنن اجتماعية أخرى، حتى يتمكن من تسخيرها.

وفي اعتقادنا، أنه من المفيد التوقف عند هذه القضية قليلا، وتسليط بعض الأضواء عليها، بالقدر الذي يسمح به المجال، لأن لها من الأهمية، ما يجعلها محل بحث قائم بذاته، ويستدعي الفقه بها،

ومتابعة النظر إليها، في ضوء معرفة الوحي في الكتاب والسنّة، ومدارك العقل في دراسة التاريخ، والتأمل في السيرورة البشرية، والسنن أو القوانين التي تحكمها، وما يمكن أن يلمح من التصادم بين القدر والحرية، والتي يُعبر عنها أحياناً كمسلَّمة: بأن التاريخ يعيد نفسه.. تلك المقولة التي حاولت جعل الفعل البشري مسيَّراً، كجزء من فلسفة عامة في تفسير الحركة الإنسانية، واستجاباتها، ومعايرتها، طبقاً لقوانين المادة الصماء، في محاولة لقطع علاقة الإنسان بالخالق المدبر للكون، وجعل حركة التاريخ حتمية ذاتية، ألغت معها حرية الإنسان، أو أية إرادة خارجة عن إطار المادة!

وعلى الرغم من سقوط الحتميات، التي ادعى لها فلاسفتها وأنصارها، أنها الآلهة البديلة عن الله خالق الكون، إلا أننا لايمكن أن نقول: بأن حركة الحياة هي عبث من العبث، خارج عن نطاق أية سنّة، أو نظام، أو انضباط، وإرادة مطلقة.. بل نقول:

إن الحقيقة التي أكدتها التجارب البشرية المتطاولة، والنتائج التي انتهت إليها تواريخ الكثير من الشعوب، ومنها تاريخ الأمة المسلمة: أن هناك سنناً، وقوانين اجتماعية، وضعها الله وقدَّرها، فهي أقدار لحكم حركة الحياة والأحياء، وبينت معظمها معرفة الوحي، في الكتاب والسنَّة، ودعت إلى التأكد من نفاذها، والتحقق منها، بطلب السير في الأرض، ودراسة تاريخ الأمم السابقة، للاهتداء إليها، ومعرفة التعامل معها، وكيفية المداخلة في مسارها، وتسخيرها.

هذه السنن والقوانين، هي من السنن الجارية، وليست الخارقة، لاتتبدل، ولا تتغير، ولا تحابي أحداً.. وأنها مطّردة، تتكرر نتائجها كلما وُجدت مقدماتها، ما لم تتخلف بعض الشروط، أو توجد بعض العوائق التي ما على الإنسان إلاّ اكتشافها، لنفي العجز، وإعادة المحاولة: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٦٢) ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: ٤٣).. وأن الإنسان لايمكنه أن يبدّلها، أو يخرج عن نسقها، أو يبطلها، وإنما يمكن له من خلال إدراكها، والإحاطة بها، أن يقوم بالمداخلة، التي تمكّن من التسخير.. وهذه المداخلة، وهذا التسخير، لايمكن أن يتم بعيداً عنها، وذلك بمغالبة قدر بقدر، أو سُنّة بسُنّة..

والأمر الذي لابد من إيضاحه، أيضاً، هو: أن الله سبحانه وتعالى، بفضله، ونعمته، وتكريمه للإنسان، ناط نفاذ السنن، ونتائجها، وما يترتب عليها من تغيير، بإرادة البشر، ولم يجعلها قوانين صارمة، بعيدة عن إرادة وفعل البشر.. فالتاريخ لايعيد نفسه، وإنما يخضع لسنن مضطردة، متفاعلة مع إرادة البشر، حيث رتب الله كثيراً من سنن السقوط والنهوض، على إرادة وفعل البشر.. ولايتسع المجال لإيراد الكثير من النماذج على ذلك..

ونستطيع أن نقول: إن النص طرح هذه السنن كقوانين مطردة، صارمة، لاتتخلف، وأتى بنماذج تطبيقية من خلال مجتمعات الأنبياء السابقين، للتدليل على اطرادها ونفاذها، وعدم تخلفها وتبدلها.. وتحدى بالعواقب المترتبة عليها.. والتحدي بالعواقب، مرحلة

تعتبر فوق مرحلة تقرير النتائج، التي تترتب عندما تتوفر المقدمات في قوانين العلـوم . . من هنا نقول : بأن التاريخ مصـدر لاكتشاف سنن وقـــوانين التسخير، التي تحكـم الحيـاة والأحيــاء، حتـى يتمكن الإنسان، وخاصة المسلم، وريث النبوة وصاحب الرسالة الخاتمة، أن يبصرها ويمكن لـه تسخيرها، ومغالبـة قدر بقدر، والمداخلـة في بناء الحاضر، واستشراف المستقبل، حتـى يستطيع القيــام بمهمـــة الاستخلاف وفق منهج الله، الذي بيَّنه الوحي، وأكده التاريخ.

والحقيقـة التي لابـد من استصحــابها بـاستمـرار، هي : أن القيم المعيارية ، التي تحدد الأهداف، ونقـوِّم بها التاريخ، والحاضر، ونزن بها العقل، والاجتهـاد البشري، في محاولتـه التنـزيل الإسـلامي على الواقع، ونحدد على ضوئهـا الخطأ، والصواب، في المسيرة الحضارية الإنسـانية، والحركـة التاريخيـة الإسلاميـة، وتمنحنا الـدليل المنهجي الثـابت، في دراستنا للتـاريخ، وتحليلنـا للواقع، وتكشف لنـا السنن والقوانين الناظمة للحركـة الاجتماعية، حتى نتحقق منها، وندرك أن تسخيرهـا يعصمنا من القـراءات المذهبيـة، والأبجـديات الخاطئـة، ووجهات النظر الشخصية، وتعميم التجارب الذاتية، سواء في قراءة التـاريخ أو في إعــادة كتـابتـه، وتحملنـا أعلى درجـات المســؤوليـة والموضــوعيــة، ســواء في تحصيل المعــرفــة، أو في الالتـزام بأدبها وأخـلاقهـا، إنما هي : القيم المعصـومة، التـي جاءتنـا بها النبـوة، في الكتاب والسنة، وحققتهـا لنا معرفة الوحي، لتشكل لنا معـايير ثابتة مأمونـة، لأنها خارجة عن وضع الإنسـان، وغير خاضعة لرغبـاته، وأهوائه، وعلمه المحدود، وعمره المحـدود أيضاً، ومعارفه النسبية،

والتي تكتسب فاعليتها، واستمرارها، من الإيمان بها. . وإنها بمجموعها نظرياً وتطبيقياً، هي الدين. . والالتزام بها هو الأمانة التي حملها الإنسان. . وأن حسن أدائها وفق منهج الله، هو العبودية، التي خلق الإنسان لها. . وأن حراستها، والقيام بحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو سبيل الخيرية والتميز، التي اختص الله بها هذه الأمة، بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وينبغي أن نقول: إنه من الأهمية بمكان، الاستمرار بالتفكير، والاجتهاد في إيجاد الأدوات المعرفية، والمناهج اللازمة، لتأسيس وتأصيل القيم الإسلامية في الكتاب والسنة، في الواقع الإسلامي، ووضع الخطط والبرامج العملية، والأوعية الشرعية، والامتداد بالاجتهاد في إقامة المؤسسات، ووضع الدراسات، والإفادة من التجارب التاريخية، العامة والخاصة، لحماية هذه القيم، ومراقبة تطبيقها، وحسن تنزيلها على الواقع، والحيلولة دون القراءات الخاطئة لفهم المجتمعات الإسلامية، والتأويل الخاطىء للقيم نفسها، في الكتاب والسنة، لإعطاء مسوغ تراثي أو شرعي لمذاهب الرفض، والخروج، والاختراق. . كما لابد من نقد التاريخ بأمانة وشجاعة، وكشف الآليات الاجتماعية، أو السنن الاجتماعية، وكيفيات تسخيرها، والمداخلة في مسارها، لأن استشراف التاريخ، ووضع الحاضر في موقعه المناسب من المسيرة التاريخية للأمة، وامتلاك القدرة

على اكتشاف السنن، وتسخيرها، له من الأهمية في البناء الحضاري، ما يفوق محاولات استشراف المستقبل، ومحاولة التحكم بمسارات الحاضر.. ذلك أن الحاضر هو مستقبل الماضي، وأنه ماضي المستقبل، ومقدماته، التي لايمكن لنا حسن بناء المستقبل ما لم نصوِّبها.. وأن أية محاولة للنهوض بالحاضر، لابد أن تتم في ضوء معايرة الماضي التاريخي للأمة، في ضوء قيمها في الكتاب والسنة.

ونعتقد أن استمرار التخلف، والركود، والتراجع، إنما هو بسبب معايرة الواقع الذي نحن عليه بتاريخ وقيم حضارية أخرى، غريبة عن أصوله وقيمه الحضارية، بعيدة عن ماضيه، وأن الأمة المسلمة في تاريخها الطويل، حافظت على القيم الإسلامية، وكان انحيازها للقرآن، كلما انفصل السلطان عن القرآن.. وأن هذا، كان يشكل لها دائماً خميرة النهوض، ويمنحها الإمكان الحضاري، إذا توفرت شروطه وظروفه، ويحول دون موتها وانقراض حضارتها.

وقد تكون المشكلة اليوم: أن عمليات النقد، والمراجعة، والمعايرة، وإعادة قراءة التاريخ، أو كتابته، إنما تتم بعيداً عن القيم، التي جاء التاريخ استجابة لها، أو جنوحاً عنها، بسبب سوء الفهم للتعامل معها، وتتخذ من قيم الحضارة الغربية، وكلياتها، ومذاهبها السياسية، والاجتماعية، معياراً للحكم على التاريخ الإسلامي، ومحاولة مقاربته ومشابهته بالمراحل التاريخية، التي مرت بها المجتمعات الأوروبية، وما سادها من قيم، الأمر الذي لم يورث الأمة المسلمة إلا مزيداً من التبعية، والتخلف، والانحطاط، والتشويه، والتخاذل الثقافي..

وحسبنا أن نقول: إنه خلل منهجي، لتجاهله تاريخ الأمة، ومعادلتها الاجتماعية.

ولعل الإشكالية، التي نعاني منها في مشروعات النهوض، أو دعوات الإصلاح والتجديد، ووسائل التغيير للواقع، الذي نحن عليه:

الاقتصار على الإحساس بالمشكلة، وعدم امتلاك القدرة على تجاوز ذلك، إلى مرحلة تحليلها، ودراسة العناصر التي تتكون منها، والأسباب التي تكمن وراءها.. أو بمعنى آخر: عدم الإحاطة بعلمها كما ينبغي، في ضوء استيعاب المعادلة الاجتماعية للأمة المسلمة، التي تمكننا من اكتشاف الخلل، وتشكل لنا دليل المعالجة، وترسم لنا سبيل الخروج من الواقع الذي نعيشه.

لذلك رأينا أن الفشل لحق بمساعينا للنهوض جميعها، سواء في ذلك المشاريع المستوردة من الخارج، من الأمم الأخرى التي لها معادلتها الحضارية، ومنظومتها الفكرية، وتاريخها الثقافي، أو المشاريع النهضوية، وأدوات التغيير، التي طرحت في الداخل الإسلامي، لأنها -كما أسلفنا- لم تتجاوز الإحساس بالمشكلة إلى الإحاطة بها، والتعامل معها، من خلال استصحاب المعادلة الاجتماعية للأمة، التي لابد لها من الارتكاز والانطلاق من عقيدة الأمة، وقيمها.. أو بتعبير آخر: منظومتها الفكرية، أو عالم أفكارها بالدرجة الأولى، ومن ثم التاريخ المتطاول لهذه الأمة، برؤية شاملة لفترات السقوط والنهوض، لأن التاريخ في نهاية المطاف، يمثل

الاستجابة الصحيحة، أو المغلوطة، لمنظومة القيم وعالم الأفكار، ويبصِّر بالعقل العام، أو الجمعي للأمة، ويفقِّه بالكيفيات التي تعامل فيها مع القيم، وتفاعل معها، في الظروف المختلفة. . ومن ثم لابد من الإحاطة بالحاضر، وتشكله الاجتماعي، والثقافي، والسياسي، وأين يمكن تصنيف موقعه من القيم، والتفاعل معها. . وأين يمكن أن يكون من المسيرة التاريخية للأمة؟.

إن أي مشروع للنهوض، يتجاهل أحد هذه العناصر الثلاثة: منظومة القيم أو عالم الأفكار؛ والتاريخ الذي يمثل الوعاء والاستجابة والتجسيد لهذه القيم في الظروف المختلفة؛ والحاضر كحلقة من هذا التاريخ ـ لأن الحاضر هو مستقبل الماضي، كما أسلفنا ـ كعناصر تتركب منها المعادلة الاجتماعية للأمة، سوف يبوء بالفشل والعجز عن تحقيق أي نهوض، على الرغم من امتلاك إمكانيته، حيث أننا في هذه الحالة، قد نمتلك القدرة، لكننا نفتقد الإرادة التي تتحقق من خلال الرؤية الشاملة، التي لابد منها في أية عملية للنهوض، وتجنب الارتكاس، والإحباط، وانطفاء الفاعلية.

إن القراءات النقدية التقويمية، التي ندعو إلى تأصيلها، وإشاعتها، وتشكيل العقل الناقد، المتسلح بالمعايير الدقيقة، في الكتاب والسنة، المتسم بأمانة المعرفة وأخلاقها، يجب ألا تقتصر على الماضي (التراث والتاريخ)، بل لابد أن تمتد إلى نقد وتقويم الواقع المعاصر، وتكون قادرة على كشف الأسباب الممتدة في التاريخ، والنتائج التي انتهت إليها في الحاضر، وامتلاك القدرة على وضع الحاضر ـ كما أسلفنا ـ في موضعه الصحيح من المسيرة التاريخية، حتى

يمكن الإفادة من التاريخ في تصويب الحاضر، والتحضير للمستقبل.

وإننا حينما ندعو إلى الصدق مع أنفسنا، وعدم الانحياز العاطفي للتاريخ الإسلامي، ونؤكد على أهمية النقد، والمراجعة، والتقويم، لتصويب مسيرة الحاضر، وحسن رؤية المستقبل، يحزننا أن نقول: بأن ما يمكن اعتباره من السلبيات في التاريخ الإسلامي، أو من النقاط السوداء أثناء معايرته بالقيم، في الكتاب والسنة، إذا ما قورن بالحاضر الذي نحن عليه، يجعل الحاضر، الذي لانجرؤ على نقده، دون سوية تلك السلبيات، التي ننتقدها في التاريخ الإسلامي!

وبعـــد:

فإن هذا الكتاب، الذي نقدمه في إطار السلسلة، يأتي في وقته المناسب، ليساهم في إبراز مقومات الهوية الإسلامية ـ بعد أن اشتدت المحاولات الدولية، في حقبة العلو اليهودي، الثقافي والسياسي، بعد مرحلة العلو العسكري، لطمسها، وإلغائها ـ وبيان قسمات المجتمع الإسلامي، وتميزه، من منظور تاريخي، وليدلل على عمق قيم الكتاب والسنَّة، واستمرارها، وانحياز الأمة إليها، حتى في أشد الفترات، لأنها هي القوة الدافعة للنهوض، المانعة من السقوط، ولأن أية محاولة للنهوض، بعيداً عن معادلة الأمة الاجتماعية، واستصحاب قيمها المعيارية، والاهتداء بظروف وشروط ميلادها الأول، في السيرة النبوية، سوف تبوء بالفشل كما هو الحال.. ويبقى المطلوب اليوم: كيفية تحويل القيم الإسلامية، إلى مؤسسات فاعلة، قادرة على الامتداد بها، والحراسة لها، ووقاية الأمة، وعدم الانشغال

عن ذلك، بـالتراجع إلى مواقع الفكـر الدفـاعي، التي يحدد ساحـاته العدو، والتي استنـزفت ـ ولا تزال ــ الكثير من الطاقـات، وحالت دون المرابطة في المواقع الغائبة عن ساحة الفعل الإسلامي.

ولعلي أقـول : بأن الحاجـة إلى التأسيس، والتأصيل، والارتبـاط بالجذور، في هذا الـوقت بالذات الذي بدأ يتمـدد فيه الآخر، المهيمن على الثقافة، والحضارة، والتاريخ، وعلى التشكيل العقلي، للكثير من المفكرين العرب والمسلمين، باتت اليوم أشد من أي وقت مضى.

وتأتي ميـزة الكتـاب أيضـاً، من أن الأخ : الـدكتـور أكـرم، بما يمتلك من مـرجعية شرعيـة، ونظـرات نقديـة منهجية، ودراسـات تخصصية في التاريخ الإسلامي، يعتبر إضافة نوعية، ولبنة أساسية في المنهج المطلوب للعقل المسلم المعاصر.. والله المستعان.

المقدمة

مشروع دراسة قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي :

الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه ...

لاشك أن موضوع تعامل المجتمع الاسلامي مع القيم الاسلامية يحتاج من الناحية التاريخية الى أطروحات عديدة ممهدة تبسط القضية في كل مجتمع ، وفي فترات التاريخ المتعاقبة ، وربما يحتاج الى عشرين أطروحة أو أكثر تتقدم مثل هذا البحث الذي قد يشكل خلاصةً ورؤية لها ، من هنا يبدو أن ماقمتُّ به هو عمل انتقائي للأمثلة وليس حصراً ، كما أنه عمل انتقائي من بيئات معينة ، لأن العالم الاسلامي يتسع اتساعاً هائلاً ويسكنه سدس سكان الأرض ولأن تأريخه ليس تأريخاً بسيطاً بل يمتد في عمق الزمان أربعة عشر قرناً ، كما أن مُثله بسبب مصدرها الالهي تمتد في أعماق التاريخ الى آدم عليه السلام أول الأنبياء ، فآدم عليه السلام كان موحداً ودعا الى عبادة الله تعالى وعلّم أبناءه التوحيد ، وأما مايقال من كون الانسان في بداية خلقه لم يكن واعياً بقضايا العقيدة والتوحيد وأنه بذل مجهوداً ذاتياً لتفسير الكون والحياة ومعرفة مصير الانسان مما كشفت عنه الدراسات الغربية ـ وخاصة في حقل الانثروپولوجي ـ التي قامت قبل قرن ونصف ضمن أُطُر فلسفية معينة سادت المجتمعات الغربية ، وكانت التيارات الفلسفية التي تسيطر على الغرب في منتصف القرن الماضي ـ القرن التاسع عشر ـ تتمثل في الفلسفة الوضعية ، وهو تيار كبير ربما يحتل ربع المساحة الثقافية ، ويندرج تحت هذه المدرسة الوضعية عدد كبير من الفلاسفة

والعلماء الطبيعيين وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء التاريخ ، والى جواره يقف تيار آخر هو التيار العقلي الذي يقوده « كانت » صاحب كتاب « نقد العقل الخالص » وتنضوي تحته مجموعة كبيرة أيضاً من الفلاسفة ومن علماء النفس ومن علماء الاجتماع ، ثم يعارض التيارين تيار عرف بالتيار المثالي ، والذي يبرز من بين رجالاته « بريجسون » . هذه التيارات وبصفة خاصة التيار الذي يمثل الفلسفة الوضعية والذي قاده « أوجست كونت » وتابعه « دوركايم » في علم الاجتماع ، والذي كوّن مدرسةً كانت ترى أن القضايا المعقدة المركبة في الفكر وفي الطبيعة وفي الفسلجة - علم وظائف الأعضاء - يلزم من أجل فهمها أن نردها الى أوضاع بسيطة ، ولكن كيف نقف على تلك الأوضاع البسيطة لنرد المركبة اليها ؟ قالوا : يمكن أن نفعل ذلك لو اتجهنا الى الأقوام البدائية التي لازالت حتى الآن منعزلة حضارياً ، وهكذا اتجهوا الى كولومبيا - شمال غرب الولايات المتحدة - وهناك وجدوا بغيتهم في مجموعة من قبائل الهنود الحمر . واتجه بعضهم الى استراليا ، وهناك وجد بغيته في مجموعة من القبائل التي تعيش عيشة بدائية .. وهكذا ردوا المركب الى البسيط بأن حاولوا التعرف على معتقدات هذه الأقوام البدائية ، وسبر هذه المعتقدات ومعرفة كيف تنشأ عند الأقوام البدائيين ، وقاسوا على ذلك فقالوا : الانسان في فجر التاريخ هكذا كان كما هو شأن هذه الأقوام ، فهناك الطوطمية التي هي عبادة الأسلاف وعبادة الحيوان والتي تظهر في القبائل الاسترالية البدائية المنعزلة ، أو التي تظهر في قبائل البولونيز وفي مناطق كولومبيا ، وليس الأمر فقط بالنسبة للألوهية وكيف وصل اليها الانسان ، وإنما أيضاً مثله وقيمه وأخلاقه كيف وجدت وما هو مصدرها ، فقالوا : بأن المصدر ليس خارجياً وإنما الانسان بتجاربه يطور هذه الأخلاق ، وبالتالي هي نسبية وليست مطلقة ، لذلك نجد أنماينكره قوم يقبل به آخرون ، وهذا يدل على النسبية ، كما أن ماكان يرتضيه أجدادنا

لايرتضيه أحفادنا ، وهذا يشير الى النسبية أيضاً ، فإذن قضية مصدر القيم وقضية نسبية الأخلاق انبثقت من دراسات حاولت أن ترد المركب الى البسيط ، وأن تنظر الى التاريخ الانساني من خلال القبائل البدائية ، وهكذا كانوا يفعلون في دراسات علم النفس ، فهم يدرسون الحالات الشاذة المرضية ليعرفوا حالة الانسان السوي ، وهذه مسألة خطيرة رفضتها عدة تيارات فكرية وفلسفية ونفسية واجتماعية في الغرب نفسه ، رفضوا الفكرة أساساً (محاولة الكشف عن المعقد والمركب بالاتجاه الى البسيط والبدائي والقياس عليه) . من هنا ظهرت فكرة الاعتقاد بأن الانسان مصدر القيم وبرزت فكرة إيجاد الدين الطبيعي عند أوجست كونت في أواسط القرن التاسع عشر حيث قال بأنه يمكن أن نجد أخلاقاً نحددها بأنفسنا وديناً ندين به ويكون ديناً طبيعياً يقوم على أساس العقل ، ومضوا في هذا الاتجاه خلال القرن العشرين ، ولكن القرن العشرين كشف عن أمور هائلة وردَّ الكثيرين منهم الى الصواب ، عندما كشف عن مدى انتظام الكون وغائيته ، حتى أنه يمكن أن أشير الى بعض الاتجاهات الحديثة لدى فلاسفة لايدينون بالاسلام ولايدينون بدين ، ولكنهم من الفلاسفة الطبيعيين الذين درسوا الطبيعة والعالم والأفلاك ثم انتهوا من تجاربهم الى الاقتناع بأن العالم له غائية (له هدف) وأنه يقف خلفه - بتعبيرهم - عقل منظم . وبالطبع نحن لاتهمنا التعبيرات ، لأننا لانعبر بهذه التعبيرات عن الصفات الالهية ، وإنما نحن نصف الخالق عزوجل بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من صفات الكمال والاجلال والتقديس ولله المثل الأعلى .

إن الاتجاهات الحديثة لدى فلاسفة القرن العشرين الكبار تخطت النظرة المادية التي تحكمت في القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين ، ويتضح الاتجاه الجديد في أطروحات « هوايت هيد » و « ايدينجتون » و « جيمس جينس » .. ولنتأمل في كلام « ايدينجتون » المتوفى

سنة ١٩٤٤ م حين يقول : « إن حقيقة أن العلم محدود بالمعلومات عن هيكل الأشياء حقيقة ذات أهمية قصوى - يعني أنه يصف الأشياء ولاينفذ الى جوهرها وإنما يصف الهيكل الخارجي - إنها تؤكد أن الحقيقة الكاملة لاتزال غير معروفة ، وفي ضوء هذه الحقيقة لايمكن الزعم الآن بأن أحاسيسنا أو تجربة اتصال النبي بالله - طبعاً هنا لايخصص أي نبي - ليس لهما موضوع خارجي ...... - إذن يرفض بأن هذه ليس لها موضوع خارجي يعني يرفض القول بأنها ليست حقيقة تاريخية وُجِدت فعلاً وحصل مثل هذا الاتصال - وذلك لأنه من الممكن جداً أن يكون هناك مثيل خارجي لهذه الأحاسيس ، أو لتجربة النبي ، أو العارف بالله - طبعاً ذهنه فيه تشوش من حيث عدم التمييز بين العارف وبين النبي - ولم يعد من الممكن أن يقال عن أحاسيسنا الدينية أو الجمالية أنها مجرد ظواهر خادعة كما كانوا يقولون بالأمس صلافةً وتبجحاً » . فهذا عالم طبيعي كبير يهدم ماقيل قبل منتصف القرن العشرين ، وهذا التيار يستمر خلال النصف الثاني من القرن العشرين . ويظهر التغير العظيم في العلم الحديث عندما يرفض التفسير المادي للكون ، وهو التفسير الذي تبنى عليه الماركسية والتي تقول « لا إله والحياة مادة » كما تبنى عليه الفلسفات الوضعية وغيرها التي ترى أن الحياة أيضاً مادة ، وأنه ينبغي أن يُخضع - خاصة لدى الفلسفة الوضعية - كل شيء للتجربة والحس وللملاحظة ، فإن لم يصلح للملاحظة الخارجية ، فإنه لايعترف به باعتباره حقيقة علمية ...

يقول عالم الرياضيات « جيمس جينس » - هذا نشر الكتاب سنة ١٩٨٤ م ، فهو من أحدث الكتب في هذا الموضوع - يقول : « إن الكون أشبه بفكر عظيم منه بماكنة عظيمة » - هذا طبعاً بعد جولات الفضاء ومركبات الفضاء والاقتراب من كواكب أخرى وتطور العلوم الطبيعية والفلكية والفسيولوجية - .

« إن الكون أشبه بفكر عظيم منه بماكنة عظيمة » .. بمعنى أن مظاهر العقل فيه أقوى من المادة ، نحن طبعاً نعبر عن صفات الله تعالى بالعلم ، والارادة ، وأنه ينفذ إرادته ومشيئته في الخلق وفي الأقدار وفي توجيه التاريخ البشري .. بل هو الخالق لأفعال الناس ، كما في جزء الامام البخاري « خلق أفعال العباد » ..

« إن الكون أشبه بفكر عظيم منه بماكنة عظيمة » .. إن الذهن لم يدخل الى هذا العالم المادي كأجنبي عنه ، ونحن نصل الآن الى مكان يجدر بنا فيه استقبال الذهن كخالق لهذا الكون وحاكمه ـ طبعاً هنا الذهن المجرد لايقصد ذهن انسان ـ إن هذا الذهن بلاشك ليس كأذهاننا البشرية ـ وبالطبع فإن جيمس جينس ماتلقى فكره من الوحي الالهي ولكنه يحاول أن ينبش عن الحقيقة وأن يصل الى شيء ، وهو يعبر عنها وفق اجتهاده البشري وطاقته البشرية ، إذ ليس له علاقة بألفاظ الوحي والايمان بالله ، فهو يعبر بتعبيراته الخاصة ، ولكن هذا كله له مدلول ـ فهو يقول : « ليس كأذهاننا البشرية » ـ نحن نقول في صفات الله تعالى (ليس كمثله شيء) ـ بل هو ذهن خلق الذهن الانساني من الذرة ـ نحن أيضاً نقول بأن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان من طين ، من ذرات الطين ، هكذا كان خلق آدم عليه السلام ـ وهذا كله كان موجوداً في ذلك الذهن الكوني في صورة برنامج معد مسبقاً ـ برنامج كوني معد مسبقاً ، نحن نعبر عن هذا بالمشيئة الالهية في الخلق ، وبعلم الله القديم وبإحاطته الكاملة ـ « إن العلم الجديد يفرض علينا أن نعيد النظر في أفكارنا عن العالم ، تلك التي كنا قد أقمناها على عجل ، لقد اكتشفنا أن الكون يشهد بوجود قوى منظمة أو مهيمنة .... وهذه القوى تشبه أذهاننا الى حد كبير ، وهذا الشبه ليس من ناحية العواطف والأحاسيس وإنما هو شبه يتعلق بذلك النهج الفكري الذي يمكننا تسميته بالذهن الرياضي » .

هذا الكلام الى جانب أقوال أخرى لعلماء الطبيعة ومفكري الحضارة الغربية يكشف لنا عن التحول الذي حصل ، أنا أريد أن أشير بهذا الى أن قضية « لا إله والحياة مادة » لم تعد قضية مقبولة حتى في نطاق الفكر الغربي .. وأن ربط القيم بالانسان وأنه هو الذي اكتشفها وطوّرها وأنها نسبية وأنه يمكن التحكم فيها بواسطة العقل ، هذا كله هو الذي أدى الى الفوضى الأخلاقية التي تشهدها أوروبا وأمريكا ، فالدين الطبيعي الذي اقترحه أوجست كونت والفلسفة الوضعية انتهى الى أن الانسان في أرقى الأوساط العلمية والحضارية المادية يقفل بابه عند المغرب ولايستطيع أن يكون على تماس بأي انسان آخر إلا من خلف لوحات الزجاج التي يقدم الانسان فيها النقد ويمسك البضاعة .. هذا الذي يحدث في الولايات المتحدة بعد العشاء ، وتخشى معظم النساء من الخروج في الطرقات ليلاً ، هذا الذي يحدث في العالم الغربي ، هذه الحضارة المنخورة التي لاتدين لله تعالى وتدين للأهواء والشهوات وتميل الميل العظيم .

وقد نتصور أن قضية التطور ونسبية الأخلاق طُرحت بسبب التقدم العلمي وعندما نتابع الفكر الغربي نجد أن السفسطائيين في اليونان - في أثينا - قبل ميلاد عيسى عليه السلام بستة قرون قالوا بنسبية الأُخلاق ، وعلاقة الانسان مع الفكر تشبه أحياناً علاقته مع الثياب من حيث أن الموضة الجديدة تقضي على القديمة ، لكن القديمة ماتلبث أن تعود ربما مع تعديلات بسيطة ، وبالتالي فإن ماقاله السفسطائيون قبل الميلاد بستة قرون عاد الفلاسفة الغربيون فقالوه في منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ..

هنا نأتي الى وضع القيم في المجتمعات البشرية قبيل نزول القرآن على نبينا عليه الصلاة والسلام ، فالعلمانيون عندما يدرسون القيم الاسلامية ويدرسون القيم الجاهلية يقومون بالمطابقة مع مُثُل الحياة العربية قبل الاسلام

ومع ماورد في التوراة والانجيل ، ويسلكون مسلكين في غاية الغرابة ، فالأشياء اذا تطابقت بين الاسلام وماقبله من أديان قالوا : هذا دليل على أن الاسلام اقتبسها من التوراة ومن الانجيل ومن الأديان السابقة ، فإن اختلفت قالوا : هذا دليل على أن القيم ليست مطلقة وإنما هي نسبية ، ففي كلتا الحالتين يحاولون الغنيمة ، وسرقة الحقوق الأدبية ، لأن قصدهم الواضح ليس الوصول للحقيقة ، وإنما محاولة تشويه الاسلام ، والقول بأنه لم يأت بجديد ، والقول بأن شعائر الحج مثلاً كانت موجودة عند الجاهليين ، وكل الذي فعله الاسلام أنه رفع الأوثان ، وأما الطقوس فواحدة ، أما النظرة الايمانية الى هذا الموضوع فإننا نعتقد بوحدة الأديان ومادام مصدر القيم الاسلامية هو المصدر لكل القيم التي بعث بها الأنبياء فهذا هو سبب التشابه في العبادات وأشكالها وفي القيم الخُلُقية والمُثُل العليا لأن الأنبياء جميعاً أكدوا على التوحيد وعلى الارتفاع بإنسانية الانسان ، وكانت الأديان كلها إسلاماً وخضوعاً لله تعالى ، ورفضاً للشرك ، ورفضاً للأخلاق المتدنية .

وأما قضية النسبية في الأخلاق كما نجدها عند الأمم البدائية فلا شك أننا لانرفض هذه المناهج جملة وتفصيلاً فيما يتصل بدراسة الأمم البدائية ، الذي نرفضه رفضه فلاسفة الغرب أنفسهم من مدارس أخرى غير المدرسة الوضعية وهو أن نرد المركب الى البسيط وأن نقيس على البسيط ماجرى في أحقاب التاريخ .. فدراسة قبائل بعينها ذات أخلاق متغايرة تدل على أنهم اجتهدوا في هذه الأخلاق إذ لم يصلهم وحي ، وبالتالي ستختلف فيما بينهم ، ولكن هذا لايعبر عن نسبية الأخلاق ، وإنما يعبر عن عدم قدرة الانسان بجهوده الخاصة الى الوصول الى الحق المطلق ، لا في التوحيد الخالص ولا في القيم والمُثُل العليا .. وبالتالي لاتنطبق هذه الدراسات - التي أقيمت وفق مشاهدات وملحوظات على أمم بدائية - على الأديان السماوية الموحى بها والتي هي أصل وحدة القيم الخُلُقية عالمياً ، لأن الرسالات عالمية ، فالله

عزوجل أرسل أنبياء الى الأمم المختلفة وفي مراحل مختلفة من التاريخ ليقيم الحجة على الناس (وما كُنّا معذبين حتى نبعث رسولاً) [1] فهناك رسل كثيرون وهناك أنبياء أكثر ، وليست هذه إشارة الى الحديث الذي يقول بأن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون نبياً فإنني لم أقف له على طريق صحيح ، وأما الرسل فتعتضد طرق الحديث في كونهم خمسة عشر وثلاثمائة رسول ، تعتضد طرق ضعيفة ومنها طريق صححها الحاكم ووافقه فيه الذهبي ، ولكن الله تعالى ذكر أسماء أنبياء كثيرين وأشار الى أنه حجّ الناس بإرسال الرسل اليهم ..

إن قيم المجتمع الاسلامي تنبثق كما نعلم من مصدرين أساسيين هما كتاب الله تعالى وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكيف تعامل المسلمون مع هذه القيم ؟

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى نزل منجماً مُفرقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام ، وهو النص الديني الوحيد الذي كتب في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكل الرسالات الأخرى لم تكتب في عصر رسلها وإنما بعد ذلك بقرون ، لو تأملنا في الديانة اليهودية سنجد أن التوراة كتبت بعد موسى عليه السلام وأن شروح التوراة أُدخلت فيها أقوال أنبياء اليهود خلال قرون طويلة ، وكانت الاتجاهات التفسيرية تميل عن التوحيد في مدرسة يهوذا الى كثير من التجسيم في حين أن المدرسة التي كانت تعرف بمدرسة السامرة كانت أقرب للتوحيد ، وهذا كله يشير الى التدخل الكبير من قبل أحبار اليهود فيما كتب ونسب الى الله تعالى ، وقد بيّن الله تعالى لنا في القرآن أن اليهود حرفت التوراة ، لكن

---

١ الإسراء ١٥ .

لاشك أن في التوراة قدر من الحق وأحكام تشريعية صحيحة ، وكما نعلم أن اليهود في عصر الرسالة عندما ظهرت مشكلة المرأة اليهودية التي زنت واحتكموا الى الرسول صلى الله عليه وسلم على أثر الخلاف بينهم هل يرجمونها أم يعاقبونها بعقوبة أخرى أخف ، فجاءوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم للتخلص من حكم الرجم فلما فُتحت التوراة وُجد فيها حكم الزنا ولكن اليهود وضعوا أيديهم على الموضع ، فهذا يشير الى بقاء أحكام تشريعية صحيحة في الكتب السماوية المتقدمة وإن كانت قد حرِّفت ، لكن التحريف لم يكن شاملاً لكل مضامينها التشريعية والخلقية . إن القرآن بالنسبة للعرب في شبه الجزيرة هو أول كتاب يتعاملون معه ، فكان أول كتاب تعاملوا معه هو كلام الله ، لأنهم لم يكتبوا كتباً قبله ، وإن كتبوا المعلقات السبع على الجلود وعلّقوها في الكعبة ، ولكنه لم يكن ثمة كتاب يتداوله الناس ، فكان أول كتاب تداوله الناس هو كلام الله تعالى ، فكانت فطرهم تتلقاه دون أن تمتزج بأي فكر فلسفي ، وهكذا تلقته نقياً طرياً ، وتأثرت به وتشبعت به وتفهمته ، ولاشك أنهم استعانوا بالرسول صلى الله عليه وسلم في الفهم ، فتعمق فهمهم لكل ماأمر الله تعالى به ولكل مانهى عنه.

وهكذا عرفوا الحقوق والواجبات من خلال كلام الله تعالى ومن خلال بيان النبي عليه الصلاة والسلام في حين أن كثيراً من هذه الحقوق ناضلت - بالتعبير المعاصر ، لأنهم فعلاً ناضلوا إذ لا أجر لهم في جهاد - أمم الغرب طويلاً للحصول على كثير من الحقوق المتصلة بالشورى أو بحرية الرأي أو بحقوق التصرف المختلفة أو بساعات العمل أو بتحقيق العدل في توزيع الثروة أو ما شاكل ذلك من القضايا وخاضوا غمرات صراع طويل ولا شك أنه أزهقت في سبيل ذلك أرواح كثيرة . من هنا ندرك سبب ما حصل من خلاف في الرؤية التاريخية بين رئيسة وزراء بريطانيا - السابقة - ثاتشر وبين الرئيس الفرنسي ميتران حول تقويم الثورة الفرنسية ، فالثورة الفرنسية وإن

تمكنت من ترسيخ كثير من الحقوق لكنها بالطبع مافعلت ذلك إلا بعد مظالم هائلة وبعد قتلٍ لبشرٍ كثيرين ، وبعد أن أقامت محاكم إرهاب وساقت الناس الى المقاصل ، أما المسلمون فإنهم مافعلوا شيئاً من هذا القبيل وإنما جاءهم الأمر منحة من الله تعالى (إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) [1] قيل لهم : افعلوا كذا . قالوا : سمعنا وأطعنا . افعلوا كذا لاتفعلوا كذا ، جاءت أوامر وجاءت نواهي ، وتوقف الناس عند أمر الله تعالى وعند أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا أُمروا بإراقة الخمر التي اعتادوها وأفرطوا فيها ونظموا فيها القصيد خرجوا بدنان الخمر الى شوارع المدينة وسككها فأراقوها وقالوا : انتهينا ربنا ، انتهينا ربنا ، وحتى إذا أُمرت النساء بأن يتلفعن بنزول آيات الحجاب تلفعن بالمُرُط أول سماع الآيات ، وهذه الاستجابة السريعة لكل الحقوق ولكل الواجبات ولكل التشريع لاشك أعطى المجتمع تماسكاً عظيماً ولازلنا حتى الوقت الحاضر ننعم بآثاره ونفيء الى ظلاله ونعرف أن كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، ولايقدم أحد منَّا - إلا اذا كان سفيهاً فاجراً - على اغتصاب مالٍ أو اغتصاب عرضٍ أو قتل نفسٍ بلا حق . ولاشك أن ماحزناه منحةً من الله تعالى الذي حدد لنا الحقوق والواجبات دون أن نبذل في ذلك جهداً ودماءاً وصراعاً تاريخياً طويلاً . وحقوق العمال التي أدت الى اضرابات والى قيام نقابات والى إثارة مشكلات والى تعطل أعمال والى شغب كثير ، من أجل تحديد ساعات العمل ، من أجل أجرٍ عادل ، كل هذا أوضحه الاسلام دون هذه المجهودات ودون هذه الاضطرابات « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ،

[1] الاسراء ١٧

ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»[1] ـ لاحظ التعبير ـ .

والنهي عن الظلم والأمر بالعدل المطلق ، هذه القيم التي رفع الله بها شأن الأمة الاسلامية ، وأوجد فيها التماسك الاجتماعي والأمن الجماعي، وهي قيم لو حافظنا عليها تقودنا دون شك الى وحدة المجتمع الاسلامي وقوته وعودته الى الله تعالى والى طريق الحضارة ..

إن أسلافنا فهموا أن القرآن لايريد أمة ضعيفة وإنما يريد أمة مجاهدة قادرة على حماية الحقوق التي وهبها الله لها بموجب الكتاب والسنة، لاتفرط فيها ولاتتنازل عنها وإنما تسعى لضمانها ، وتتضافر الجهود في هذا السبيل لأن الأمر ليس أمر قانون وضعي وإنما هو أمر من الله تعالى ، والكل يسعى لتطبيقه والحفاظ عليه ، الناس والسلطة ، هناك عباد الله تعالى مهما كان وضعهم في السلم الاجتماعي أو السلم السلطوي ، الحاكم والمحكوم يعرف أن الحكم لله (إن الحكم إلا لله) فهو يسعى بحكم معتقده الديني الى تحقيق الحقوق وتحصيلها والقيام عليها والحفاظ على أمن مجتمعه ، أمن اجتماعي وأمن ثقافي يحفظ وحدة الأمة من الفتن الداخلية التي تطحنهم ببعضهم بدل أن يتجهوا بقوتهم الى الخارج لتثبيت كيان الاسلام والدفاع عنه .

بالطبع في تاريخنا صور مضيئة ، وفي تاريخنا آنتكاسات ، وينبغي أن نعترف بأن وحدة الأمة هُزمت في ظروف كثيرة وأنها واجهت الخصوم الخارجيين وهي على خلافٍ بينها وأن هذا حدث في الحروب الصليبية وحدث في مواجهة التتار ، وأن السبب في الهزائم يرجع الى التربية والمعتقدات السائدة في المجتمع الاسلامي فلو فحصنا مستوى القيم والمثل

---

[1] البخاري : الصحيح ١ : ١٣ ايمان ٢٢ ، ومسلم : الصحيح ، ايمان ٤٠ .

العليا لوجدنا أنها انتكست قبل أن يواجه المسلمون أعداءهم الخارجيين ، وأن التجديد في روح الأمة أو تجديد إيمان الأمة ضعف ، وهناك حديث شريف ساقه الحاكم وأشار الى الثقة برواته ووافقه الذهبي يفيد بأن الايمان يخلق وأنه يحتاج الى التجديد .. وتجديد الايمان لاشك هو بالعودة الى الأصول ، بقراءة القرآن قراءة متدبرة واعية فاحصة ، والاستعانة على ذلك بتوجيهات الرسول عليه الصلاة والسلام ، والاحساس عند القراءة بأن القرآن غض طري مثل وقت تنزيله ، ويمكن أن ينفتح القلب وينشرح وتدخله المعاني ، وكلما تعمق الانسان في فهم الآيات وتوجيهها كما بين الرسول عليه الصلاة والسلام وكما بين علماء السنة والمفسرون كلما اتضحت امكانية الوعي الهائل الذي يمكن أن يرفدنا به كلام الله تعالى ، بطبيعة الحال نجد الشمول في أخلاقيات الاسلام ، في المثل العليا الاسلامية ، ففي الحياة الاقتصادية نجد مُثُلًا ، نجد مايمنع من الاحتكار ، نجد مايمنع من الربا الذي هو استغلال الانسان للانسان وحاجته ، ومحاولة اكتناز الثروات الهائلة التي لايمكن أن يستفيد منها الانسان بل هي تضره لأنها تأخذ عمره دون أن يتمكن طيلة حياته وحياة أبنائه من بعده من استنفادها .. هنا نجد التوجيه نحو استثمار المال وعدم اكتنازه ، نحو إخراجه الى المجتمع ، نحو تداوله (كي لايكون دولةً بين الأغنياء منكم) فتتداوله أيدي الأغنياء والفقراء ، ويستفيد الغني بهذا الاستثمار ويستفيد الفقير لأن الأموال تتداول وبالتالي هناك قوة لشراء الاحتياجات وبالتالي لاتقع حالات الكساد الدورية التي تقع في الرأسمالية .. الاسلام اجتث ظلم الرأسمالية عن طريق تحريم الربا وتحريم الاحتكار ، حيث لايوجد نظام رأسمالي إلا مع وجود هذين الركنين ..

وفي قيم الحضارة والأخلاق والعلم يكفي أن نبرز صورة المجتمع الاسلامي وصورة علمائه في القرون الخمسة الأولى وماحققوه من إنجازات

نتيجة التوجيه القرآني نحو التجريب (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا)[1] .. وهكذا أمضوا الحواس في ملاحظة الظواهر الطبيعية والظواهر العلمية وخصائص المواد ، وهذا الذي علمه المسلمون لأوربا ولكنهم ناموا عنه وتركوها تدرج فيه حتى سبقتهم بأربعة قرون منذ القرن السادس عشر الميلادي بداية النهضة الأوربية في حين أن تفتح وعي المسلمين لازال حديثاً ، ولكن هذا التفتح اذا استند الى الوعي الايماني والحماس الديني والتصور الفكري الصحيح واللجوء الى الله تعالى والاستعانة به لاشك أنه سيعيد الأمة ليلتحم فيها الجانب التقني مع الجانب الايماني ولتقدم للبشرية حضارة متوازنة بين الروح والمادة ..

إن الاشكالية التي يطرحها بعض المفكرين ، والمتمثلة في وحدة منظومة الحضارة الغربية ، وأنه لايمكن رفض فكرها المادي وقيمها الخلقية النفعية والأخذ بتقنيتها العلمية فقط ، لأن الفكر والقيم تعبير عن الواقع المادي عند الماركسيين ، وهي أداة وقائد عند آخرين من فلاسفة الغرب المثاليين ، وفي كلتا الحالتين لايمكن الفصل بين الجانب الفكري والقيمي والجانب العلمي والصناعي من منظومة الحضارة الغربية . فإذا أراد المسلمون التقدم العلمي والتقني فلابد لهم من الانخلاع عن شخصيتهم الحضارية وقيمهم الروحية والأخلاقية والاندماج كلياً في بوتقة الحضارة الغربية ، إذ ليس بإمكانهم القيام بعملية انتقائية لأن غياب القيم التي ولدت العلم والصناعة المتقدمة سيحول دون تحقيق الانجاز المطلوب . ولكن عند التحقق من هذه الاشكالية يبدو أنها تحتوي على مغالطة تتكشف عند عرضها على الواقع التأريخي والمعاصر . إذ يبدو أن هذا الربط مجرد صورة نظرية

---

[1] الاسراء ٣٦ .

في أذهان الفلاسفة والمفكرين .. فإن اليابان حققت تقدماً هائلاً في صناعاتها دون أن تفقد هويتها ، وهكذا الأمر في دول جنوب شرق آسيا الناهضة . ومن الناحية الواقعية فإننا نجد علماء مسلمين يلتزمون بالاسلام عقيدةً وسلوكاً وقيماً يحققون مستوىً رفيعاً في العلوم الطبيعية والتقنية والاجتماعية مما يدل بوضوح على أن قيمهم الاسلامية لاتعيق تقدمهم العلمي .. والمجتمع هو مجموع الأفراد الحاملين للقيم ، وبالتالي فإن الاشكالية المطروحة سرعان ما تتبدد أمام الواقع العملي . وأما النقد النظري فقد رفض علماء اجتماع كبار مثل فاكس فيبر « فكرة وجوب ووجود علاقة مباشرة بين البنية الاقتصادية التحتية والبنية الثقافية الفوقية »[1] ، ويقول عن عصرنا : « بأن الأخلاق الرأسمالية والعلمانية قد وافقت الشرق الأوسط ليس لوجود علاقة داخلية بين المجتمع الصناعي والأخلاق العلمانية ولكن لأن المثقفين المسلمين ، والذين كانوا قد وافقوا على هذا التفسير الغربي للتأريخ ، كانوا قد استعاروا هذه المجموعة من وجهات النظر العالمية »[2] . ويرى فيبر « أن الطبيعة الوراثية للمؤسسات السياسية الاسلامية هي التي أعاقت - في رأي فيبر - ظهور المقدمات الضرورية للرأسمالية وبالأخص : القانون العقلاني ، وسوق العمالة الحر ، والمدن المستقلة ، والاقتصاد النقدي ، والطبقة البرجوازية »[3] .

والحق أن ظهور الرأسمالية لم يتم في العالم الإسلامي بسبب تحريم الدين للربا والاحتكار ، ولكن قد برزت في عالم الاسلام تشريعات

---

1 براين تيرنر : علم الاجتماع والاسلام ص٣٥ .

2 براين تيرنر : علم الاجتماع والاسلام ص ١٨ .

3 تيرنر : علم الاجتماع والاسلام ص ١٧ .

تكفل تنظيم النشاط الاقتصادي ودفعه الى الأمام بإقرار حرية التملك وحماية الملكية وحرية العمل وحرية التجارة ، ولولا الجمود الحضاري وضعف النخبة المثقفة ونوم الجماهير الطويل لأمكن قيام اقتصاد نشيط موازٍ للرأسمالية في عالم الاسلام .

إن القيم الاسلامية ليست معوقة لاتقان الصناعات ولا لنمو رأس المال واتساع التجارة ، وللحفاظ على فائض القيمة من قبل أرباب العمل مما يمكنهم من النمو المستمر .

وينبغي البحث عن الأسباب الحقيقية للتردي الاقتصادي في العالم الاسلامي حيث أن الانفصام بين الأمة والقيم الاسلامية هو أبرز عوامل التخلف .. ومن ثم فإن تجديد « الدين » ظاهرة صحية ومبشرة بمستقبل واعد اذا تمَّ طرح المفاهيم بمستوى حضاري وثقافي مناسب لهذا العصر ، وقد تتردى الأحوال أكثر اذا تمَّ الطرح بصورة أخرى تحمل عناصر التعصب والانغلاق والجمود ..

ان الحديث عن قيم المجتمع الاسلامي من منظور تأريخي ينبغي أن تتقدمه دراسات تقويمية (قيمية) كثيرة تغطي شرائح اجتماعية عديدة لفترة تاريخية شاسعة الامتداد في الزمان والمكان الذين أثر فيهما الاسلام..وتقوم باستقراء واسع وعميق لتفاعل القيم المطلقة مع حركة الانسان في التأريخ لاكتشاف إيجابيتها وقدرتها على إمداد الانسان والحياة بالمعنى أو الوعي لوجوده ومسؤوليته .

إن القرآن كلام الله هو أول كتاب باللغة العربية حرك وعي الانسان قبل أربعة عشر قرناً وفتح عقله على مكانه في الكون والحياة ، وعرَّفه بالحقوق والواجبات التي تعمق وعيه الاجتماعي ونظرته الانسانية، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يوضح ذلك كله بأقواله وأفعاله وسيرته الشخصية ، ونظرا لتمثله القرآن بعمق ووعي خاصين ، وتأثيره الكبير في جيله خاصة فإن

الرؤية القرآنية تحولت الى واقع انساني معاش تفاعل مع الوحي الالهي قرآنا وسنة وأثمر ارتقاءا عظيما في الوعي الانساني العام عندما انتشر الاسلام في الزمان والمكان ..

إن معاناة الانسان في الحياة يمكن أن تتضاءل بازدياد وعيه في ظل الوحي الالهي ، في حين قد يؤدي الوعي نفسه الى زيادة المعاناة عند غياب الايمان من النفس والحياة ، إن قسوة الحياة تزداد عندما تفتقد « المعنى » وإن الدين هو الذي يعطيها المعنى .

« ويشير عدد من الدراسات المقارنة بين حضارات مختلفة الى خلاصة مؤداها أن الإكتئاب أكثر شيوعاً في الثقافات الغربية » [1]

وما ذلك إلا لافتقار الحضارة الغربية الى المعنى ، وبالطبع فإن بعض الأديان والمعتقدات تعطي قيماً سلبية تضعف الدعم الاجتماعي لمعتنقيها ، «فهناك من يرى أن مرضى الاكتئاب الأفريقيين لا يشعرون بالذنب والكآبة الا عندما يتصلون بالأفكار المسيحية واليهودية » [2] ، كما أن بعض الثقافات ـ ومن ضمنها اليابانية ـ ربما تشجع الانتحار من خلال ترويج الاعتقاد بأنه تحت ظروف معينة يكون الانتحار طريقاً مؤكداً الى ملكوت السماوات . [3]

ويرى العديد من علماء الاجتماع والنفس أن النهضة الاوربية منذ القرن السادس عشر كان حافزها المهم ما يسمونه بأخلاق العمل البروتستانتية التي تؤكد على أهمية العمل حيث « يؤمن الفرد بأن العمل من أهم الاشياء في الحياة ، وأن من المستصوب أخلاقياً أداء العمل الشاق ، وأن على المرء

---

١) مايكل أرجايل : سيكولوجية السعادة ١٤٤ .

٢) المصدر نفسه ١٤٤ .

٣) المصدر نفسه ١٤٥ .

أن يعيش حياة قوامها ضبط النفس ، وأن قيمة المرء يُحكم عليها من خلال عمله . وقد نبتت هذه الأفكار أصلاً على يد المصلحين البروتستانت : كالفن ولوثر ، وصارت تسمى بأخلاق العمل البروتستانتية » ١ ، ومن الناحية التأريخية فإن حركات الاصلاح البروتستانتية تأثرت بالقيم الاسلامية من خلال احتكاك المفكرين الأوربيين بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية والاحتكاك الحضاري في الأندلس والبحر المتوسط(صقلية) والحدود الاسلامية البيزنطية .

وإنه لمن المؤسف حقاً أن لا تظهر في البلاد الاسلامية دراسات اجتماعية ونفسية تعنى بأثر القيم الاسلامية على الفرد منذ مولده الى نهاية عمره في جوانب حياته المتنوعة ، كما لاتوجد دراسات حول أثر القيم الاسلامية على الشرائح الاجتماعية والمؤسسات القائمة والتفاعل الاجتماعي داخل بناها مدعومه بالبيانات والجداول الاحصائية والاختبارات العلمية التي ترشد المسيرة الحضارية الوليدة .

إن محاولات الاصلاح والثورة في عالمنا الإسلامي المعاصر لم تحقق زيادة الوعي لصالح التواصل بين الناس واحترامهم لبعضهم ومحبتهم للآخرين وتحقيقهم للعدل إلا بقدر محدود لأنها لم تتعرض لروح الانسان ولم تؤثر في حاجات التوحش والأنانية ولم تستثر كوامن الحب والرحمة ، وكل ذلك بسبب بعدها عن الوحي الالهي .

لقد تعرض هذا البحث للقيم الروحية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية كلا على حدة لغرض تنظيم المعلومات ، وإلا فإن القيم تعمل متداخلة في إطار واحد ..

---

١ المصدر السابق ٥٣ .

الباب الأول

الفصل الأول

قيم الحياة الروحية والخلقية

يعطي الاسلام مساحة واسعة لتوضيح صلة الانسان بالخالق عزوجل من خلال التعريف بالخالق وصفاته ، وكيفية عبادته ودعائه ، وتوجيه مشاعر الانسان نحوه ، وتتسم العلاقة بالحب والطاعة خلافا لمشاعر الأمم التي اعتبرت نفسها في صراع مع الآلهة التي اخترعتها كاليونان حيث نازعوا آلهتهم للحصول على الأسرار الطبيعية ، ولازالت وريثتهم « الحضارة الغربية » تعبر بـ « قهر الطبيعة » وبـ « موت الاله » في أدبياتها عند كل اشارة الى انتصار علمي أو تقدم فكري يحققه الانسان ، فلا يزال انسان الحضارة الغربية في حالة صراع مع « الله » رغم سيطرة الكنيسة ومفاهيمها خلال العصور الوسطى الطويلة حيث لم تنتزع منهم جذور الصراع الوثنية ، بل سقطت هي في حبال الوثنية عندما قبلت برفع الصور (الأيقونات) في أماكن العبادة . وقد ركزت الفلسفات المادية الحديثة على علاقات الانسان بالطبيعة والمجتمع وأهملت علاقته بالله عندما قسمت المعرفة الى طبيعية (فيزيقيا) وماوراء الطبيعة (ميتافيزيقيا) فاعترفت بالأولى وأنكرت الثانية واعتبرتها أساطير وخرافات ابتدعها الانسان في بداية وعيه بالذات والحياة في فجر التأريخ . ولاشك أن الانقطاع عن عالم الروح انعكس على علاقات الانسان الاجتماعية والكونية .

إن عبادة الله في الاسلام منظمة بصورة دقيقة ، وهي تولد الاستقرار النفسي والصمود في مواجهة أعباء الحياة ، فهي تهيء فرصة التواصل العميق وعدم الاحساس بالتوحد والوحشة ، والقدرة على المناجاة ، مع الاطمئنان الى قدرة الخالق على عون الانسان ورحمته به ، وهكذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة بأنها «معراج المؤمن ». ويلاحظ أن العبادات تؤثر في النفس والجسم معا ، وتولد توعية واحساسا في الزمن عن طريق الانتباه المستمر لأوقات الصلاة يوميا والصوم شهرا من السنة والحج في أشهر معلومات ، ولاشك أن استثارة الوعي بالزمن له قيمة عظيمة في وعي الانسان بوجوده وبأهمية حياته .

ووحدة الخالق وتوحيده في العبادة حرر الانسان من عبودية الذات ومن الخضوع المهين للآخرين ، وبذلك يحقق الانسان قدرا عظيما من الوعي بالحرية والمحافظة عليها ، والاعتزاز بالنفس والشعور بالكرامة للانسان بصرف النظر عن اختلاف العرق واللون والمعتقد « ولقد كرمنا بني آدم » ..[1]

ليس ثمة صراع بين آلهة كما في الوثنية اليونانية والزردشتية والمانوية .. ليس للشر إله يدافع عنه .. والانسان متوحد لاتمزقه الثنائية بين إلهين أو أكثر ..

والاعتقاد بالشفاعة بالآخرة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يشفع لأمته ، والأولاد لآبائهم ، والمؤمنون الصالحون لمن قصرت بهم أعمالهم، مما يدل على امتداد التواصل والرحمة والرغبة في مشاركة الآخرين في النعيم ، وكأن ماربي عليه المؤمنون في الدنيا من تعاون وبر وعدم الأثرة والشفاعة

[1] الاسراء ٧٠ .

لبعضهم في استحصال الحقوق يمتد الى الآخرة « من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها »[1] ، وقد أثرت الشفاعة بعمق في بنية المجتمع الاسلامي ، فلم يحس الفرد بأن عليه أن يناضل وحيدا في الدنيا للوصول الى حقه ، بل يمكن أن يستند الى الآخرين الذين لن يقفوا مكتوفي الأيدي ودون اكتراث ، بل سيقدمون له العون في الخير . ويمكن أن نشير الى حادثة إطلاق الألوف من سبي قبيلة هوازن بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . كما أن تحريم الشفاعة في حدود الله وتطبيقها ولّد اطمئنانا على حقوق الناس وعقوبة الجناة دون تدخل من أية سلطة .

إن إيمان المسلم بالآخرة لم يؤد الى الاسترخاء والرضى بالتعويض عما بفوته من حقوق في الدنيا ، بل جعله يحس بالامتداد في الزمان والمكان ، وطمأن من رغبته النفسية بـ « الخلود » تلك الرغبة التي عبرت عنها الميثولوجيا اليونانية والبابلية والمصرية ... وأما مايزعم من كون الايمان بالآخرة والجنة والنار يخدر الجمهور عن حقوقهم ومصالحهم في الدنيا فيرده أن الاسلام يؤكد على المحافظة على الحقوق ويعد عليها الجنة « ومن قتل دون ماله فهو شهيد »[2] . وينبغي أن تفهم العقيدة بصورة شمولية ، وهذا مفهوم بالنسبة لكل فلسفة ومنهج ونظرية حياة .. فالاسلام هو الوعي الدائم بالحق وللحق .

كما أن التطلع للآخرة ولد معنى لثبات القيم الخلقية ، مادام الانسان يجد امتدادا لحياته وحسابا على أعماله ، وهكذا يستثمر حب الانسان لنفسه وخوفه عليها ورجاءه لها في العمل الصالح ابتغاء الرضوان والجنة في

---

١ النساء ٨٥ .

٢ البخاري : الصحيح ٣: ١٧٩ ومسلم : الصحيح كتاب الايمان ٢٤٦ .

الآخرة.

وثمة موازنة بين الخوف والرجاء ، فلا يجنح الانسان الى الخوف الشديد الذي يحول حياته الى كوابيس واكتئاب يحطم نفسه ، ولايمضي عابثا مسترخيا بحجة أنه يرجو رحمة الله ، لذلك حذرت الآيات والأحاديث الانسان من الاغترار ، فاذا توازن الخوف والرجاء في قلب المؤمن أفضى ذلك الى التقوى وعلامتها طاعة الله .

ان المحور الذي يدور حوله النشاط الانساني كله هو « إرضاء الخالق » فالمسلم في فاعلياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يحس بأنه يعبد الله مادام يخسن في عمله ، ومادام ينوي به القربى الى الله ، ولكنه يحتاج من أجل ذلك الى تنمية المعاني العبادية من الذكر والشكر والتوكل والرضى والحب وكل مايغذي الروح ويحيي القلب ويوثق صلته بالله من قراءة القرآن ونوافل الصلاة وكثرة الصدقة وأعمال الخير والبر مع خلوص النية ، ومعالجة أمراض النفس والروح . وقد كان لهذه المعاني أثر عظيم في نفوس المؤمنين على تباين مستوياتهم الثقافية ، وتمايز أعمارهم ، وتنوع أذواقهم ، واختلاف بيئاتهم ، من حيث صياغة شخصياتهم ، وتشكيل بنيتها النفسية وقيمها الروحية والجمالية ، وتحديد مقاييسها الخلقية وضوابطها الاجتماعية ، ووعيها بمكانها من الكون والتأريخ .. إن قراءة كتاب كبير مثل « سير أعلام النبلاء » للذهبي يمكن أن توضح البعد التأريخي لهذه المسألة .

إن دعاء الله بالأدعية المأثورة تولد عزيمة قوية وصمودا نفسيا عاليا وتطرد غياب المعنى والاحساس بالعبثية والسأم ، ولنتأمل في أثر الدعاء على

المؤمن من دعاء مأثور نصه « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال »[1] أية طاقة نفسية يمكن أن تتولد في النفس أيا كان مصدر متاعبها ومعاناتها وهي تحس بالعون الالهي في مغالبة القهر والذل والشقاء ...

وقد جمع الاسلام بين كليتين عظيمتين ، الأولى : القضاء والقدر ، والثانية : مسؤولية الانسان عن العمل ، وهذا الجمع يكفل تحقيق الطمأنينة وإزالة عقد الذنب والخوف ، ويولد روح المغامرة والبذل والفداء والتضحية ، ويحدد بقوة ووضوح مسؤولية الانسان ، فهو يدبر أمره حسب اجتهاده لأنه لايعلم الغيب ولايستطيع أن يستفيد من مصادر غيبية توضح ماسيحدث في الحياة مما كتب الله عليه ..

إن الخوف من الحتميات القدرية والذي طبع آداب اليونان لامكان له في أدبيات الاسلام إلا عندما ينحرف الفهم لعقيدة القضاء والقدر ، لذلك عندما اعترض أحد الصحابة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين اختار لجنده الانتقال الى الجبال بالشام حتى يرتفع الطاعون ، فقال له الصحابي : أتفر من قدر الله ؟ قال : نفر من قدر الله الى قدر الله .[2]

والله قريب من الانسان (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)[3] فهو لايحتاج الى الوسطاء بينه وبين الله كالكهنة والقسس ورجال الدين في العقائد والأديان الأخرى ، لذلك لم يعرف الاسلام

---

١ البخاري : الصحيح ٤ : ٢٣ ، ٧ : ٩٩ ، ٩٧ .

٢ البخاري : الصحيح ، كتاب الطب ، ٧ : ١٦٨ ومسلم : الصحيح ٤: ١٧٤٠ .

٣ البقرة ١٨٦ .

نظام الاعتراف الذي عرفته النصرانية حيث يجلس المرء أمام القس ليفضي بأسرار حياته ويعترف بخطيئاته ملتمساً الغفران مما يعرض كرامته للامتهان وأسراره للافشاء .

وقد حاول بعض الناس عبر التأريخ أن يجدوا وسطاء من الحجر والشجر والبشر يناجونهم ويسألونهم ، فأعلن الاسلام أنه الشرك وأنه لاوساطة بين الانسان وربه .

وقد بيَّن الله تعالى أن الناس جبلوا على دعائه وسؤاله واللجوء اليه ، وحتى الكفار منهم يذكرونه عند حلول المصائب بهم ، وحذَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعوة المظلوم «اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينه وبين الله حجاب »[1] مما يفتح بصيرة المؤمن على عاقبة ظلم الانسان ويرسي أساساً للعدل السياسي والاجتماعي .

إن باب التوبة مفتوح ، وإنَّ الرب غفور رحيم ، فالاسلام يتسم بنظرته الواقعية للانسان ، فهو ليس ملاكاً ولاشيطاناً ، بل كائن عاقل رفيع كريم ، فيه من أشواق الروح وتطلعاتها مايرتفع به الى عليين ، وفيه من رغبات الجسم وأهواء النفس ما يلصقه بالطين ، فمن طبيعته التسامي والارتقاء والسقوط والالتواء ، وقد خلق هكذا بقضاء الله الكوني ، وحكم الله الديني وإرادته تعالى منسجمة مع قضائه الكوني لوحدة صاحب الأمر ، فما دامت طبيعة البشر قابلة للذنب فإن باب الرحمة والتوبة مفتوح أمامه لئلا يحكم عليه بالخلود في الشقاء والخطيئة . وهكذا يحقق هدفاً استراتيجياً هاماً هو استمرار ربط الأتباع في حالات ضعفهم وارتكابهم الذنوب والمعاصي أو تمردهم على بعض تعاليمه ، فحتى أولئك الذين بلغ بهم العداء

---

[1] البخاري : الصحيح حديث ١٤٩٦ .

الى حد شهر السلاح لقتاله أو شهر القلم واللسان ضده أبقى الاسلام باب التوبة مفتوحاً أمامهم ، والنتيجة هي الاستمرار في استقطاب الأتباع وكسب الخصوم الذين في لحظة تألق واستبصار تحيا قلوبهم فيحولون السلاح الموجه ضد الاسلام للدفاع عنه .

وأكد القرآن والسنة على أهمية التوكل على الله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) [1] ، ومقتضى التوكل أن لايسأل الانسان إلا ربه ولايتعرض لسؤال الناس إلا لضرورة قاهرة ، ولاتتنافى حقيقة التوكل مع الأخذ بالأسباب ، مادام المسلم يعتقد أن الأمر كله لله ، وأن الله « أسند الى عباده كسباً وفعلاً ، وأقداراً واختياراً ، وأمراً ونهياً » ، فإذا أخذ المسلم بالأسباب المشروعة واستعان بالله على نجاح مقاصده فقد حقق التوكل . وقد أخطأ قوم في فهم حقيقة التوكل فحسبوه في ترك الأخذ بالأسباب فقعدوا عن السعي والعمل ، ومن هنا اتهم بعض الكتاب الاسلام بأنه يعيق نهضة المسلمين لما يغرسه فيهم من روح التواكل والعجز والكسل ، ولكن الواقع التأريخي يرد هذه التهمة ، ففي عصر التوكل الصحيح ازدهرت الحضارة الاسلامية والدولة الاسلامية والقوة الاسلامية .. ولما انحرفت المفاهيم أصابها التدهور والانحطاط .

والاسلام دين يسر وسماحة « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » [2] ، وفي الحديث : « بعثت بالحنيفية السمحة » [3]. فالاسلام يراعي طبيعة الانسان وحدود طاقته وينهى عن التعمق والمغالاة والتشدد والتكلف ،

---

[1] الطلاق ٣ .

[2] رواه البخاري : فتح الباري ١ : ٩٣ .

[3] مسند أحمد ٥ : ٢٦٦ .

فلايكبت طاقات الانسان وتطلعاته وحاجياته ولايحرمه من الراحة والطعام والزواج والنوم ، بل ينهاه عن الانحراف الى الرهبانية وتعذيب النفس ، وتدل شواهد عصر النبوة على هذا كله ، فقد منع الرسول صلى الله عليه وسلم زوجه زينب بنت جحش من تعليق حبل تستعين به على الوقوف في الصلاة قائلاً : « حلوه ، ليصل أحدكم نشاطه فاذا فتر فليقعد » .[1] وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه لأبي الدرداء : « إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : صدق سلمان » .[2]

وبالطبع فإن كتب التراجم مليئة بآثار القيم الروحية والخلقية في الاسلام على الحياة الواقعية خلال التأريخ الاسلامي ، وهي آثار تقوى بقوة الوعي الاسلامي لدى النخبة والجمهور وتضعف بضعفه . .

---

١ رواه البخاري : فتح الباري ٣ : ٣٦ .

٢ رواه البخاري : فتح الباري ٤ : ٢٠٩ .

الفصل الثاني

قيم الحياة السياسية

حدَّدت الشريعة الاسلامية الحقوق والواجبات ، فهي هبة إلهية للأمة الاسلامية ، وبالتالي فإنها مقدسة لايجوز التفريط بها والتخلي عنها . خلافاً لما حدث في التأريخ الأوروبي من نضال طويل ، حلقاته دامية ، لنيل الحقوق العامة من حرية التعبير ، واحترام المرأة والتكافؤ أمام القانون ، والعدالة الاجتماعية في توزيع الثروة القومية ، ورقابة الرأي العام على السلطة السياسية بعد مجيئها تعبيراً عن إرادته في إطار الانتخابات العامة .

إن حيازة المجتمع الاسلامي لحقوقه دون نضال قد يتولد عنها سهولة التخلي عنها أمام الضغوط المتنوعة ، ولكن هذا التخلي لن يحدث اذا كانت الأمة الاسلامية تمتلك الوعي الاسلامي السليم ، لأن قدسية الأحكام تجعل الأمة تحافظ عليها وتفتديها بالغالي والنفيس .. فحفظ الدين بعقائده وأحكامه وسلطانه مقدم على حفظ النفس والمال ، وحفظ النفس والعقل والعرض والمال من مقاصد الشريعة الاسلامية ، ثم إن منح الخالق الحقوق للخلق بنصوص الوحي الالهي من الكتاب والسنة اقتضى تطبيقه جهاداً وبذلاً منذ نزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم حتى استقرت دولة الاسلام في القرن الأول الهجري . فلولا الحركة الجهادية لما قضي على الشرك وطابع الحياة الجاهلية ، ولما استقرت معاني العقيدة الاسلامية وقيم الاسلام

الاجتماعية ومضامينه الخلقية في نفوس الملايين .. ولكن الأجيال الاسلامية المتأخرة افتقدت الوعي الاسلامي السليم ، ولم تعد تجاهد للاعلاء من « قيم الدين » لاداخل المجتمع الاسلامي ولاخارجه .. وهكذا لم تعد الحقوق والواجبات تحظى بنفس القدسية القديمة ، ولم تعد قيم الدين تحرك الأفراد والمجتمعات حيث انحسر الدين داخل المساجد ففيها تقام شعائره ، وفقد تأثيره في حركة المجتمع العامة ، حتى اذا ماظهرت الصحوة الاسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين ، وتصاعد مدها ليشمل الجماهير العريضة من المسلمين عاد الاهتمام الكبير بقدسية الحقوق والواجبات ، وهذا بشير بالعودة الى « الحضارة » .

إن الاحساس بقدسية الحقوق والواجبات يولد ضبطاً اجتماعياً عالياً ، ومواءمة بين « الأمة » و « السلطة السياسية » ، كما يخفف من عبء المحافظة على « الأمن » ، فلايستطيع الأفراد ولاالجماعات تجاوز الحدود المرسومة ، كما لاتستطيع « السلطة » التجاوز على حقوق الأمة ، فالحدود المرسومة ليست وضعية ، ولايمكن التحايل عليها ، ولاتعديلها مادامت تنبع من الوحي الالهي ، وتلامس شغاف القلوب ، والموقف منها يحدد مصير الانسان الأبدي ..

إن التربية الاسلامية هي الأداة لتوضيح القيم وتحديد الحقوق والواجبات في الدولة الاسلامية .. وإن روعتها تتجلى في إمكانية توفيقها بين تكوين « الانسان الصالح » و « المواطن الصالح » و « الفرد الصالح » و « المجتمع الصالح » بالخروج من تناقضات المصالح بين هذه « النماذج » الى أفق أرحب يغذيه الايمان بالله وبالآخرة .. وتناقضات المصالح تواجه بقوة التربية العلمانية سواء منها القومية أو الأممية ، فكل « نموذج » يزيح « النموذج الآخر » ويعمل على تهميشه ، في حين تزول المشكلة في نطاق التربية الاسلامية حيث ينسجم الخاص والعام بصورة عجيبة في اتساقها

وتلازمها ..

وقد هيمنت التربية الاسلامية في القرون الأولى على جماهير غفيرة من الأمة الاسلامية ، وتكونت « النخبة » في عصر السيرة والراشدين وفق مفاهيمها وقيمها وأنماطها السلوكية ، ولكن وسائل الاتصال المحدودة في ذلك العصر لم تمكن « النخبة » من توسيع دائرتها وتكوين قاعدة عريضة وسط الجماهير الغفيرة ، والتي تمتد مساكنها عبر آلاف الأميال من الرمال القاحلة رغم جهود النخبة الهائلة في هذا السبيل ، فلم تنقطع رحلات المعلمين والدعاة في البوادي خلال عصر السيرة رغم الأخطار المحدقة بها كما يلاحظ في حادثتي « الرجيع » و « بئر معونة » .

ومنذ بناء الأمصار الجديدة « البصرة » و « الكوفة » و « الفسطاط » و « القيروان » اهتمت النخبة بتوضيح مفاهيم الاسلام للجمهور بواسطة الحلقات العلمية والدروس وخطب الجمعة والمواعظ .. ولاشك أن دائرة النخبة الفكرية اتسعت في عصر الراشدين .. وزاد اتساعها بعد استقرار الفتح في العصور الأموية والعباسية .. وتمكنت النخبة والجمهور الموالي لها من تدعيم الوعي الاسلامي ونشره ، ومنع القوى الأخرى من اختراق المجتمع وإسقاط رموزه وسلطاته .. فأخفقت « حركة الردة » وأعيد توحيد الدولة في خلافة الصديق رضي الله عنه .. وسقطت المجوسية سياسياً بسقوط الامبراطورية الساسانية وانحسرت اجتماعياً الى مناطق الجبال حيث أخفقت في التقدم فكرياً وعسكرياً ، وكان اندحار حركة المانوية (الزنادقة) في عهدي المهدي والرشيد إيذاناً بنهاية المجوسية فكرياً ، كما كان سقوط البابكية عسكرياً في خلافة المعتصم نهاية لنشاط المجوسية العسكري .. وكانت قدرة « النخبة » على تقديم الأطر العقدية والفكرية هي العامل الهام في إسقاط المجوسية ...

ولكن النخبة لم تكن منظمة إلا في حدود التجمعات العامة حول

إمام كبير كما حدث في الكوفة تحت لواء الامام أبي حنيفة ، وفي المدينة حيث ارتفع الامام مالك ، وفي مصر حيث الامام الشافعي ، وفي بغداد حيث الامام أحمد بن حنبل .. فكان التمحور حول عالم مجتهد يمتلك فكراً شمولياً ، ويقدر على التأصيل وإعادة التأسيس وتقديم رؤية شاملة للحياة الاسلامية . ولكن جهود النخبة لم تكن كافية لتأسيس قاعدة عريضة تتمتع بالوعي الاسلامي السليم ويصعب اختراقها من قبل الأعداء في الداخل والخارج .. ومن هنا تعرضت الحقوق والواجبات للانتقاض أو الانتقاص .. وتمَّ اختراق المجتمع من قبل القوى الخارجية .. وضعف الوعي الاسلامي الرشيد بصورة تدريجية .. وعجزت « النخبة » عن النهوض بالجمهور ثانية الى المستوى المطلوب ..

وأما « السلطة الاسلامية » فإن وعيها الديني كان عميقاً في عصر الراشدين ، وتمكنت من الحفاظ على وحدة الدولة والقضاء على محاولات التجزئة .. كما وعت مهامها في نشر الاسلام سواء بتوسيع نفوذه السياسي أو بنشر مفاهيمه بالاستعانة بالنخبة من الصحابة والتابعين .. ولكن « السلطة الأموية والعباسية » لم تتبن تنظيم النخبة ؛ كما لم تتبن مركزية التعليم ، فنلاحظ اختفاء مؤسسات التعليم الرسمي حتى أواسط القرن الخامس الهجري ، فكيف يمكن لدولة تقوم على أساس عقدي أن تهمل الاشراف على تربية الأجيال الاسلامية وفق العقيدة والشريعة والآداب الاسلامية ؟

وأمام هذا الفراغ قام التعليم على عاتق العلماء في المساجد والبيوت ثم المدارس الأهلية ، يمدهم أنصارهم بالمال والأبنية اللازمة .. وأول جهد رسمي في مجال التعليم يظهر على يد الوزير نظام الملك السلجوقي (ت ٤٥٩ هـ) .

إن إقبال الجماهير على « التعلم » كان كبيراً بسبب قدسية العلم في المنظور الاسلامي حيث يمكن حشد العديد من الآيات والأحاديث التي تدفع

المسلم الى زيادة وعيه المعرفي ، وهذا يفسر إقبال الألوف من الجماهير على حلقات المحدثين والوعاظ ، كما يفسر إقبال المئات من الطلبة المجدين على الحلقات العلمية الجادة في فروع المعرفة المتنوعة ، والتي غذّت المجتمع الاسلامي بقياداته الفكرية خلال أحقاب التأريخ الاسلامي .. ونظراً لأن معرفة القرآن والسنة تتصل اتصالاً وثيقاً بالوعي الديني والدنيوي ومعرفة الحقوق والواجبات ، فإنها تقابل دراسة نصوص الدساتير والقوانين الحديثة.

وقد امتد هذا النمط من التلقي العلمي الى الجماهير الغفيرة ، فكان عبد الله بن المبارك (ت ١٨١ هـ) يعقد مجلساً للحديث بباب الطاق ببغداد يحضره عشرة آلاف يكتبون مايملي عليهم .[١] وكان يجتمع عند علي بن عاصم (ت ٢٠١ هـ) أكثر من ثلاثين ألفاً ، وعند ابنه عاصم بن علي بن عاصم ماقدر بعشرين ألفا ومائة ألف[٢] ، وعند الحسن بن عيسى بن ماسرجس (ت ٢٤٠ هـ) بضعة عشر ألفاً[٣] ، والأمثلة كثيرة على الاقبال الجماهيري المنقطع النظير على تلقي العلم ...

ولكن مؤسسات التربية والتعليم وقدرة « النخبة » تبدو أضعف بكثير مما يلزم لاحتواء الأجيال الاسلامية العريضة إذ لم تكن ثمة وسائل اتصال

---

[١] الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٠ : ١٥٢ . وانظر عن الحلقات العلمية في بغداد ودمشق : , AHMED , MUNIR - UD - DIN.
MUSLIM EDUCATIN AND THE SCOLARS SOCIAL STATUS UP TO 5TH . CENTURY MUSLIM ERA IN THE LIGHT OF TARIKH BAGHDAD , ZORIKH , 1968 .

وملك أبيض : التربية والثقافة العربية ، ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٨٠ .

[٢] الذهبي : تذكرة الحفاظ ١ : ٣٥٩ .

[٣] ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ص ٨٠ .

إعلامي قوية كهذه التي توافرت في عصرنا من صحافة ومجلات وكتب وإذاعة وتلفاز تكفل تجانس ثقافة المجتمع وغرس مقاييس وقيم وأعراف سليمة .. فضلاً عن التوعية الكاملة بالحقوق والواجبات ..

ومن الصعب أن نلوم - من منظور عصري - الكثير من قيادات الأمة الاسلامية الفكرية عبر تأريخنا الاسلامي المبكر ، واتهامهم بعدم شمول وعيهم لجوانب الحياة العديدة .. وإلا لأمكننا أن نلوم انسان العصر الحجري لأنه لايعلم تقنيات الكومبيوتر .. بل من الحق أن نعترف بأن الذين اتسموا من أهل العلم والدعوة بشمول الوعي هم قلة مثّلوا منارات الهدى عبر التأريخ الاسلامي في حين اهتم معظم علمائنا بجانب دون آخر ، وغلّبوا بعض الحقوق والواجبات على حساب الأخرى ، ولم يتم طرح متوازن للعقيدة والشريعة والآداب ضمن إطار فكري واضح يرسم مسار الحياة الاسلامية وأطرها وأنماطها الصحيحة الا بنطاق محدود .

إن أية قراءة في كتب التراث الفقهي الاسلامي وكتب الرقائق والوعظ ستؤكد هذه الحقيقة ، ولازال الطرح الجزئي للمسألة الدينية هو الغالب على الساحة الاسلامية حتى الوقت الحاضر ، ولايغيب عن أذهاننا سعة المشكلات المتراكمة بسبب هذا الطرح وبسبب التأكيد على « المظهر » أكثر من « الجوهر » وعلى الفروع أكثر من الأصول ، مع غلبة روح الشكوى والانتقاد والسخط أكثر من مواجهة الواقع ومعالجته بعقلانية واعية تحكمها روح متألقة ، وليس المقصود انتقاص موقف النخبة المسلمة التأريخي ، بل إن التحليل التأريخي لهذه الشريحة لازال بحاجة الى دراسات كثيرة ، ولكن الصور المتفرقة تعطي انطباعات أولية عن وقوف أصحاب العقيدة من « النخبة » في صالح الجمهور ودفاعهم عن مصالح الأمة ، في حين اندفع أصحاب الشهوات الى تطمين مصالحهم الخاصة وتبرير الواقع ، وبالطبع فإن المرائين يحسبون ضمن أصحاب الشهوات مهما سجل التأريخ

من شهادات عدد ركوعهم وسجودهم وقيامهم وصيامهم ! ! وبقية مظاهر التقوى الزائفة التي تقربوا بها الى الجمهور لاخفاء صورتهم الحقيقية .

إن وزيراً مثل محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان قلده المقتدر الوزارة بدعم من أم ولد الخليفة المعتضد دستنبويه حيث ضمن لها مائة ألف دينار ووفَّى لها بذلك ! فلا شك أنه رجل طموح مستعد لدفع المال لتحقيق أغراضه في الحصول على منصب الوزارة ، ولكنه أمام العامة كان يتظاهر بالصلاح فكان الخدم يأتونه بالرقاع من دار الخلافة فلا يكلم الواحد منهم إلا بعد مائة ركعة يصليها ثم يأخذ الرقعة ويقرؤها ويطيل القراءة والتسبيح ، ثم يجيب عن الرقعة ، فكانوا ينصرفون بوصفه ومارأوا منه فكان أقوى أسبابه [1] . وقد انصرف مرة بمركبه من الدار مع صلاة المغرب ، فرأى العامة يصلون في المسجد ، فخرج يصلي معهم ، وكان صائماً فأتفذت له المغنية بدعة (جارية عريب مولاة المأمون ت ٣٠٢ هـ) ماءاً بارداً ليفطر عليه ، فلم يفطر عليه ، وشرب من ماء دجلة ! فهل كان العامة على قدر من الوعي لتقويم شخصية الوزير الصائم الورع الذي يرشي أم الخليفة ليحوز الوزارة ؟! والذي يتآمر على حياة علي بن عيسى لئلا يعود الى الوزارة ؟! [2]

ومع ذلك يبقى وعي المسلمين الانساني أعمق من الآخرين بفضل الوحي الالهي .. ولكن الخبرة البشرية تتراكم وتنضج مع المسيرة التأريخية للانسان .. ولايمكن أن نتهم أسلافنا بأنهم لايمتلكون الرؤية الشمولية ولاالمؤسسات الناضجة التي تحقق أهداف الاسلام في الحياة ، فقد عملوا جهدهم ضمن ظروف تأريخية معينة . لكن هذا لايمنع بالطبع تلمس جوانب

---

١ يعني الى السلطة .

٢ الصولي : الأوراق ١٧٠ .

الضعف في مسيرتنا التأريخية .. والبحث عن جذور مشكلاتنا الحضارية المعاصرة .

وكما أن السلطة لم تنظم النخبة ولم تسع الى مركزية التعليم ، فإن النخبة لم تتكتل إلا عند الأزمات الكبيرة كما حدث في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج الثقفي والتي برز فيها أثر القراء ، وفي ثورة الربض في الأندلس والتي برز فيها أثر الفقهاء (٢٠٢ هـ) ، وفي ثورة أحمد بن نصر الخزاعي في مواجهة المعتزلة في عهد الواثق (٢٣١ هـ) .

وبالطبع لايعني هذا خلو تاريخنا من التنظيمات السياسية والاجتماعية ، فإن حركات المعارضة من خوارج وشيعة والحركات المعارضة للاسلام كالحركات الفارسية المجوسية والاسماعيلية والباطنية والقرامطة وتنظيمات العامة التي تمثلت بحركات الفتوة والأحداث والآخية كلها تشير الى قيام تنظيمات سياسية واجتماعية تدل على حركة المجتمع وفاعليته واستمرار الصراع بين العقيدة الاسلامية وأعدائها عبر تاريخنا ، وكذلك الصراع الداخلي بين أبناء الملة الواحدة .. وكل ذلك دليل حركة وفاعلية .. ولكن فيما عدا نظام الفتوة والأحداث ، والذي امتد خلال قرن ونصف من العصر العباسي المتأخر ، فلا علاقة للسلطة ببقية التنظيمات السياسية والاجتماعية التي تشكلت في الغالب لمناجزة السلطة والقضاء عليها .

إن تنظيم النخبة كان يمكن أن يطور « أهل الحل والعقد » وأن تنبثق عنه مؤسسة للشورى ذات طبيعة مستقرة ودائمة تكون نظاماً سياسياً موازياً للنظام البرلماني الغربي ولكنه منضبط بضوابط العقيدة والشريعة وأخلاقيات الاسلام وموازين الشخصية الاسلامية . واختفاء هذه المؤسسة من تاريخنا رغم النص القرآني (وأمرهم شورى بينهم) و (شاورهم في الأمر) ولَّد شرخاً كبيراً في تاريخنا السياسي وفي حياتنا المعاصرة ، وهو سبب

الفراغ السياسي الذي نعاني منه .

وقد نجم عن ضعف الرؤية الشمولية لدى الدولة والنخبة معاً واستمرار ذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) وقوع فراغ كبير في الحياة الاسلامية وخاصة في الجانب السياسي حيث ضمرت مؤسسات الشورى أو انعدمت ، وقلّ الوعي بحقوق الانسان وواجباته ، وانحسرت مفاهيم المساواة والعدل والتكافؤ بين المسلمين .. وانحصر الاسلام في جانب العبادات الفردية وتشريعات الأحوال الشخصية ، وتحول الدين الكامل الشامل الذي ينظم شؤون الفرد والمجتمع والدولة الى دين للأفراد ينظم علاقاتهم بالله عزوجل .. مما سهّل اختراق المجتمع والدولة أمام الحركات الهدامة قديماً وحديثاً ، فتوزع المسلمون في العصر الحديث الى كتل وجماعات يضرب بعضها بعضاً ، ومعظمها يتبنى مفاهيم الحضارة الغربية ويستخدم مشروعاتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية للنهوض بعالم الاسلام .. وقد جرّ الغزو الفكري الى تهديم علاقة الانسان بالله والتشكيك في العقيدة وبذلك لم يعد معظم الأفراد يمارسون العبادة ،كما عدلت تشريعات الأحوال الشخصية في كثير من دول العالم الاسلامي بما يوافق القوانين الغربية .

أما الوعي الاسلامي الجديد بمضامين الاسلام الشاملة والذي بدأ مع حركات الاصلاح الديني في العصر الحديث ، فيحتاج الى الاستناد الى دراسة تأريخية لواقع الحياة الاسلامية والتربية الاسلامية والتعليم الاسلامي تاريخياً ، واستلهام ذلك التاريخ في وضع المعادلات الجديدة بين الأهداف الاسلامية المتنوعة ، مع الافادة من وسائل العصر الحديث في نشر المفاهيم التربوية وتوسيع قاعدة التوعية الجماهيرية .

ونظراً لأن المجتمع الاسلامي مفتوح للقوميات المختلفة ، قابل للانتماء اليه ، فإن إهمال الدولة لسياسة التعليم والتربية تفقده التوجيه التربوي

للعناصر الجديدة ، مما يولد أخطاراً هائلة تخلخل بنيته وتهدم صروحه . ولو نظرنا الى العصر العباسي لأدركنا خطورة ماحدث خلاله بسبب إهمال التعليم والتربية المركزيين وبسبب إهمال بناء مؤسسات الشورى .. فماذا فعل الأتراك بخلفاء العصر العباسي الثاني ؟ وماذا فعل الزط والقرامطة والزنج ؟ وماذا فعلت الخرمية والمانوية والشعوبية والاسماعيلية والباطنية ؟ ! لقد فسح الفراغ السياسي وضعف أثر الرأي العام المجال رحباً أمام القوى الجديدة ـ الداخلة حديثاً في الاسلام والتي لم تتمثل تعاليمه بعمق ـ لتخترق المجتمع والدولة ، وتصل الى أعلى المراكز وتحتكر السلطة وتفقد الخلفاء نفوذهم وتستبد بالأمور دونهم دون خوف من مؤسسات شورية أو رأي عام يقظ إذ لم تحدث ردود فعل قوية أو واسعة عند القضاء على السلطة الشرعية أو تحييدها أو تحجيمها الا نادرا . فماذا فعل سكان العاصمة بغداد عندما قتل الأتراك الخليفة القاهر وسملوا عينيه ؟ ! وماذا فعل المسلمون جميعاً عندما قتل المتوكل والمنتصر والمقتدر بالله والمهتدي بالله وعندما سملوا عيني المتقي بالله ؟ ! وماذا فعل الرأي العام الاسلامي عندما سجن البويهيون الخليفة المستكفي بالله واقتادوه مهاناً ذليلاً ثم سملوا عينيه وحبسوه حتى مات ؟! وماهي ردود فعل الرأي العام أمام انهيار سلطة الخليفة في العصر البويهي ، رغم مظاهر الاحترام الكاذبة التي أحيط بها .. ويكفي لتصوير ذلك التأمل في إجابة الخليفة المطيع لبختيار عندما طالبه بتوفير المال للغزو ، فأجابه المطيع بقوله : « الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا في يدي ، وإليَّ تدبير الأموال والرجال ، وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفائي ، وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف فما يلزمني غزوٌ

ولاحج ، ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه ، وإنما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم ، تسكنون به رعاياكم ، فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضاً وتركتكم والأمر كله » .[1]

وبالمقابل ماذا فعل الخلفاء العباسيون في سبيل إيجاد رأي عام اسلامي يقظ وواع بأهداف الاسلام ومقاصد الشريعة ومضامينها ، مدرك لواقعه ومصالحه ، مرتبط في مواقفه بمصلحة الاسلام والأمة ؟ ماذا فعلوا من أجل توسعة نطاق الشورى وتأسيس مؤسساتها وتوسيع نطاقها ؟ إننا هنا لانريد تحديد المسؤولية بدقة ، فالوعي الانساني العام لم يبلغ مابلغه في عصرنا ، ولايمكن أن نحاسب الذين عاشوا قبل ألف عام وفق مقاييس ومنجزات حديثة ، بل المقصود التنبيه على جذور المشكلات التي لازالت تعاني منها مجتمعاتنا الاسلامية المعاصرة ...

ولابد من الاعتراف بأن قوة السلطة في التأريخ الاسلامي كانت تعتمد على قوة الفرد الحاكم دون أن ترتكز على قوة الرأي العام الاسلامي ، وأن قوة الرأي العام الاسلامي وهنت بعد ظهور الاسلام بحوالي القرنين ، وكانت فاعلة في عصر الراشدين كما كانت فاعلة في أوساط عديدة بعد عصر الراشدين .

إن انعدام مركزية التعليم أفقد الدولة وحدة التوجيه وأفقد المجتمع التجانس الثقافي ، وإن اختفاء مؤسسات الشورى القوية أفقد الدولة الحماية الشعبية الضرورية ، وجعلها تواجه الأعداء بالجيوش المحدودة والأموال المحدودة دون أن يكون للرأي العام أثر كبير في الأحداث ... ونجم عن العاملين السابقين ضعف تكوين القيادات في المجتمع ، فلايجاد قيادات

---

[1] مسكويه تجارب الأمم ٢ : ٣٠٧ .

صالحة خبيرة بصيرة لابد من إعداد المناهج اللازمة لتكوينها وفرض استمرارها ، وإعطائها الفرص اللازمة للتجريب الميداني .. وإن احتكار السلطة بيد الخليفة وحاشيته وبعض وزرائه وقادته ولَّد الفراغ في الحياة السياسية وسهَّل على الأقوام الداخلة حديثاً في الاسلام الوصول الى مواقع متقدمة في السلطة ، بل صارت السلطة الحقيقية بأيديهم ، مع عدم وعيهم بأهداف الدولة والمجتمع عقدياً وفكرياً ، وعدم وعيهم للستراتيجية اللازمة للابقاء على وحدة الأمة وقوتها ووقوفها أمام الأعداء المتربصين .

إن دراسة الرأي العام ومدى فاعليته خلال التأريخ الاسلامي تحتاج الى أطروحات عديدة تجمع الأسباب الظاهرة وتجلي العوامل الخفية في فاعلية وركود الرأي العام الاسلامي عبر التأريخ ..

لقد ولَّد إختفاء مؤسسات الشورى القوية في الدولة الاسلامية الطغيان السياسي والحكم الاستبدادي والتسلط الفردي والعبث بمصالح الأمة ، وفقدانها الحريات _التي منحتها الشريعة لها _ في معظم أحقاب تاريخها ، رغم أن أمتنا مارست الشورى فعلياً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومارستها في عملية نقل السلطة عند وفاته ، وذلك في « بيعة السقيفة » التأريخية ، حيث نوقشت قضية الخلافة ورشح الأنصار ــ وهم أغلبية ساحقة ــ سعد بن عبادة ، ورشح المهاجرون ــ وهم قلة على رأسهم : أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ــ أبا بكر الصديق ، وتمكن الثلاثة من خلال الحوار من إحراز أصوات الأكثرية لصالح الأقلية ، وهو مالايعرف له مثيل في تاريخ البشرية ، فقد أثبت الجميع استعلاءهم على مصالح الفرد والقبيلة والمدينة وتقديرهم للمسؤولية العامة ، وهكذا صَفَقوا على يد الصديق رضي لله عنه بالخلافة معلنين « العقد الاجتماعي » مع قائد منهم ليس بأقواهم عشيرة ولا بأكثرهم مالاً ، ولكن له قدم سبق في الاسلام وفضل صحبة وجهاد وتضحية في تاريخ الدعوة والدولة .. وقد تركت بيعة السقيفة طابعها الاجرائي في تاريخ الأمة ،

فكانت البيعة مصدر سلطة الحاكم .. وفي أول خطبة ألقاها الصديق بعد استخلافه وضَّح طبيعة العقد بينه وبين الأمة وحدود العلاقة السياسية : « إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ... أطيعوني ماأطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلاطاعة لي عليكم .. »[1] وهذا قبل أن ينادي روسو بنظرية العقد الاجتماعي باثني عشر قرناً .

إن الأمة ملزمة بتطبيق أحكام الشريعة ، وهي تنيب الخليفة لتطبيقها ومن ذلك تحقيق أمن البلاد داخلياً وخارجياً ، وإقامة العدل بين الناس ، والمحافظة على كرامة المواطنين ، وقد خاطب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ولاة الأقاليم بقوله : « إني لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أشعارهم ولا على أبشارهم ، وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا فيهم الصلاة ، وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، ولا تجلدوا العرب فتذلوها ، ولا تجمروها فتفتنوها ، ولا تغفلوا عنها فتحرموها »[2] ، وعمر يوضح أن الأمة هي صاحبة السلطة ، وأنه لايجوز الافتئات عليها أو تجاوز إرادتها في هذا الأمر ، قال الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف : « أن رجلاً أتى عمر - وهو بمنى - فأخبره أن رجلاً قال : والله لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً . فقال عمر - حين بلغه ذلك - : إني لقائم العشية في الناس ومحذرهم من هؤلاء الذين يغصبون الأمة أمرها »[3] ، وعمر هو صاحب القولة المشهورة التي ردد صداها روسو « متى استعبدتم الناس وقد

---

1 تاريخ الطبري ٣ : ٢١٠.

2 تاريخ الطبري ٤ : ٢٠٤ .

3 المعرفة والتأريخ ١ : ٣٥١ بإسناد صحيح .

ولدتهم أمهاتهم أحرارا » إذ قال روسو « يولد الإنسان حرا ولكنه مقيد بالأغلال في كل مكان » . وقد اقتضى الحرص على تطبيق العدالة الأخذ بمبدأ استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية قبل أن ينادي به مونتسكيو في كتابه (روح القوانين) باثني عشر قرنا .

ولكن هذه التوجهات المبكرة نحو الشورى والحفاظ على كرامة الإنسان ، ومشاركة الجمهور في السلطة السياسية انتكست في مرحلتي الدولة الأموية والدولة العباسية حيث لم تظهر مؤسسات واضحة لتطبيق مبدأ الشورى في الحكم والسياسة ، وإن مورست الشورى في نطاق محدود ، إذ كان الخليفة يستشير شيعته وأصحابه ووزيره وقائد جيشه .. كما أن البيعة استمرت تؤخذ من أهل الحل والعقد لولاة العهد وللخلفاء باعتبارهم ممثلين للرأي العام ، ولكن لم يحدث أن تعين رجال الحل والعقد عن طريق الرأي العام، كما لم يكن لهم سوى إبداء الرأي دون أي إلزام للسلطة ..

وكان عمر بن عبد العزيز يدرك تحول الحكم عن الشورى ولكنه كان يعلم أيضا أن النخبة السياسية المسيطرة حوله من الأمويين تمنع أي تعديل في النظام وقد صرح بذلك بقوله : « لو كان لي من الأمر شيء لجعلتها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وصاحب الأحوص »[1].

إن ممارسة الشورى بمعنى أخذ الرأي في المعضلات من رجالات الدولة والمجتمع البارزين والاستنارة بآرائهم كانت ظاهرة واضحة في سائر الأمصار في العصر الأموي . وأما تحديد مجلس دائم للشورى ينتخبه الرأي العام فلم يتوصل إليه المسلمون في تاريخهم السياسي الطويل ، ولايمكن أن

---

[1] حسين عطوان : ملامح من الشورى في العصر الأموي ١٩٦ .

نحاكمهم وفق تصورات العصور الحديثة للحياة السياسية . وعندها سنتذكر مقولة كروتشي «التاريخ كله معاصر» لأن المؤرخ يحمل الماضي على مفاهيم وتصورات معاصرة .

ومن الحق التنبيه إلى قيام هيئة شورى الإمارة وهي ذات طابع جماعي في الأندلس ولكن رجالها من الوزراء كانوا يعينون من قبل الأمير ولم يحدث أن انتخبوا من قبل الرأي العام ، ولم تكن آراؤهم ملزمة للأمير بل كانت لمساعدته على اتخاذ القرار الصحيح حسب مايراه .

وكذلك كان ثمة هيئة شورى القضاء يستعين بها القاضي على الوصول إلى الحكم الصحيح فيما يشبه هيئة المحلفين في نظام القضاء الغربي ، والحق أن ممارسة الشورى كانت تتم في الأندلس بنطاق أوسع من المشرق مما يعبر عن تقدم الوعي الإنساني العام والذي أثر الفقهاء في تكوينه تأثيرا بالغا . [1]

وأروع صور الشورى في الأندلس مابلغته قرطبة على يد أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور (ت ٤٣٥هـ) وابنه أبي الوليد من بعده ، وقد جاء أبو الحزم إلى السلطة بإجماع الملأ من أهل قرطبة ، وحاول الاعتذار لكنه قبل حين ألحوا عليه ، فكان يحكم بالعدل والشورى ويترك الأموال بيد الثقات الذين يجمعونها تحت إشرافه بشكل ودائع مع إقامة الشهود عليهم ، فإذا دعت الحاجة يأخذ منهم على قدرها ، فإذا سئل إنفاق شيء من قبله قال للسائل « ليس لي عطاء ولامنع ، هو للجماعة وأنا أمينهم » . ولم ينتقل من داره إلى قصور الإمارة ، ولم ينظر في كتاب إلا بحضور الجماعة واستشارة

---

[1] راجع د . احسان عباس : الشورى في الأندلس والمغرب منذ بداية الدولة الأموية حتى نهاية دولة الموحدين ، ضمن كتاب الشورى في الاسلام ، نشر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية بالأردن ، ص ٣٣١ ـ ٣٧٢ .

فقهاء الشورى ، وقد ازدهرت الحياة الاقتصادية بقرطبة في عهده ، وشعر الناس بالأمان فعمروا المدينة بالبناء ، وتابع ابنه أبو الوليد خطة أبيه في نشر العدل وإقامة الشرع وإنصاف المظلومين ، وقد أظهر الناس الانضباط الشديد فانقبضت أيديهم عن التظالم وسفك الدماء . [1]

وقد اختلف اهل العلم في حكم الشورى أهو للوجوب أم للندب في قوله تعالى (وشاورهم في الأمر) بناء على رؤيتهم لتطبيقاتها في عصر السيرة والراشدين ، فذهب الى انها سنة مؤكدة ندب اليها الشارع لكنها لاتصل الى مرتبة الواجب كل من الامام الشافعي وابن تيمية وابن القيم والبيهقي وابو نصر القشيري والماوردي وابو يعلى والنووي وابن حجر العسقلاني . [2]

وذهب الى وجوب الشورى من اهل العلم كل من ابي بكر الجصاص وابن خويزمنداد وابن عطية المالكي وفخر الدين الرازي . [3] وسواء كانت الشورى واجبا وفريضة دينية ام مستحبة،فانها تصبح لازمة للامة اذا ظهر ان في تعطيلهااخلالا بمصالح الأمة واضرارا بالعدل ، ولن يعارض احد التوسع في تطبيقها مادام فعلها محموداًوالاكثار منها خيراً وخاصة في هذا العصر حيث ضعفت ملكات الاجتهاد وتعقدت امور الحياة مما يتعذر معه معرفة احكام النوازل الجديدة الكثيرة دون اجتهاد جماعي ، وشورى واسعة دائمة ، ممايقتضي تأسيس مؤسسات الشورى الدائمة والرجوع اليها.

ولنتأمل في كلام ابن تيمية (ت ٧٤٢ هـ) : وإن كان أمرا قد تنازع فيه المسلمون ، فينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه ووجه رأيه ، فأي

---

[1] المصدر السابق٣٦٠ ـ ٣٦٢ .

[2] الدميجي : الامامة العظمى ٤٤١ ـ ٤٥٥ .

[3] المصدر السابق ٤٤١ ـ ٤٤٣ .

الآراء كان اشبه بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عمل به ، كما قال تعالى (فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا)» . [1]

ولاشك أن القول بعدم الزامية الشورى - على اطلاقه - افضى الى التساهل في تطبيقها مع مرور الزمن ، بدل ان يتطور التطبيق نحو الأكمل والاشمل في فهم آيات الشورى وروحها وايجاد النظام الذي يكفل التوسع في الأخذ بها.

إن الحوار الذي يوضح ماهو اقرب الى الكتاب والسنة ملزم للإمام وللأمة في مسائل الاجتهاد الفقهي ، كما أن رأي الخبراء المتخصصين في المسائل المطروحة ينبغي أن تكون له قوة مؤثرة في صياغة القرار الذي يتخذه الامام (الحاكم) .

إن دراسة تاريخنا ينبغي أن تقترن بالمعايير الخلقية والدينية ، وأن يتم الحكم على الفعل التأريخي من خلال قيم مطلقة ثابتة بعيدة عن التأثر بمقولات الغربيين حول نسبية الأخلاق ، ومايستتبع ذلك من تسليم بأن المؤرخ ليس قاضيا ولاحكما ، وبأنه لاجدوى من الاعتبار والقياس لأن التأريخ لايعيد نفسه كما يرى هيجل (ت ١٣٨١ م) .[2] إذ لايمكن أن نسوي بين موقف وزير يستشعر مسؤوليته أمام الله والأمة ويرتفع إلى مستوى رجل دولة مثل علي بن عيسى آل الجراح الذي عرف بإصلاحاته المالية وورعه وتصدقه بأمواله الخاصة وتغليبه المصالح العامة ، حتى أنه لما بشر الخليفة المقتدر بهزيمة جيش عبيد الله المهدي بمصر وصله الخليفة بمال عظيم فلم

---

[1] السياسة الشرعية ١٨٢ .

[2] هيجل محاضرات في فلسفة التاريخ ٩٥ - ٩٧ .

يقبله ، وتصدق الوزير بأربعة آلاف دينار هي ثمن غلته كلها [1] ، فلايمكن أن نسوي بينه وبين أبي الحسن علي بن الفرات وكلاهما وزر للمقتدر العباسي (حكم بين ٢٩٥ - ٣٢٠هـ) فابن الفرات سعى للمجيء بالمقتدر إلى الخلافة واستبعاد عبد الله بن المعتز عنها لأن المقتدر صغير السن يمكنه التسلط عليه واستغلال مركزه لمصالحه الخاصة ، وأما ابن المعتز فصاحب تجربة ومعرفة بالوزراء والكتاب وأحوال البلاد فلايتمكن الوزير من التلاعب بمقدراته ، فكان أن استبعده . وقد استغل الوزير العباس بن الحسن مثقفا كبيرا هو أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت٣٣٥هـ) ليؤلف رسالة في صفة الأحداث والشبان ليبرر تولية المقتدر الخلافة وهو صبي ففعل الصولي دون أن يحاول بذل النصيحة للوزير مراعاة لمصلحة الأمة والدولة ، بل مضى الصولي يجد التبريرات للوزير ابن الفرات عندما انتشرت كتابات الناس المعبرة عن نقمتهم عليه على جدران مسجد الخليفة ، فأمدالصولي الوزير سنة ٢٩٩هـ برسالة تاريخية من المتوكل إلى والي الشرطة يأمره فيها بمحو ماكان على المساجد من الكتابات إلا القرآن .. فنفذ ابن الفرات ذلك ليمسح عبارات المعارضة من المسجد .. بل عندما قبض على ابن الفرات ونحي من الوزارة قيلت فيه أشعار هجاء كثيرة لم يذكرها الصولي إكراماً لابن الوزير .. بل تمادى الصولي فألف كتابا في مناقب علي بن الفرات ، فكان الصولي بهذا كله يسجل موقف المثقف الشاب الذي يدفعه طموحه للشهرة والمال إلى تسخير علمه لمصالح فئة صغيرة في أمر خطير هو الخلافة دون مراعاة مصلحة العقيدة وجماهير الأمة . ويبدو أن الصولي تحسن موقفه وجنح إلى

---

[1] الصولي الأوراق - أخبار المقتدر ق ٢٠١ ، تحقيق شمس الله محمد صديق ، رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الكاتبة .

الموضوعية أكثر بعد أن كبر في السن ونضجت خبرته في الحياة [1] .
ولأهمية حاشية الخليفة وبطانته أكد الإسلام على أهمية انتقاء البطانة تحصينا لمواقع القيادة في الدولة ، فقصرها على أهل الإيمان والاستقامة والصلاح (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم) .[2] ولنستعرض بعض المواقف التاريخية التي توضح موقف الحاشية وأثرها في رعاية حقوق الأمة أو إهمالها .:

« في سنة ٢٦٠هـ أصاب بلاد الأندلس محل ، ولم يبذر الناس شيئا ، وكان والي قرطبة حينئذ هو الوليد بن عبد الرحمن بن غانم ، فاستدعى الأميرمحمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ) الوزراء وأصحاب المشورة ، وساءلهم هل يمكن فرض العشور على الغلات ؟ فكلهم أفتى بجواز ذلك ، على الرغم مما يعرفون عن سيطرة المجاعة على الناس ، وانفرد والي قرطبة بالمعارضة قائلا : « إنما العشور على الغلات ، وهذا عام لم يزدرع فيه بذر ، ولااستغل زرع ، فاقبل معذرة رعيتك ، وارجع إلى ذخائرك في أمرائك وبيت مالك ، فأنفق على أجنادك ، ورفه رعيتك تعنهم على العمارة فيمايستأنفون .. فإنه الحق على مثلك من ولاة العدل ، فقد بلغنا أن طواغيت الروم فعلته بقسطنطينية ورومة وأنتم أولى بذلك » ، ولم يوافق رأي ابن غانم ميول الأمير وتطوع أحد الطامعين فضمن للأمير جمع نصف العشر على الأقل ، فاستقال ابن غانم وفشل الطامع في جمع ربع العشر فضلا عن نصفه بعد عسف الناس وضربهم ، وفاء الأمير واعتذر لابن غانم وحاول توليته من

---

[1] الصولي : الأوراق ص ٣١ .
[2] آل عمران ١١٨ .

جديد لكن ابن غانم أبى عليه .[1]

وفي دولة الموحدين في المغرب تشاور أهل الحل والعقد بمراكش لما توفي أبو يعقوب المستنصر في تعيين من يتقلد الأمر بعده ، فرشح بعضهم أبا محمد عبد الواحد أخا المنصور ـ « وكان مذكوراً في بيتهم بحزم وجودة وصلاح » ـ ، ورشح آخرون أبا محمد بن عبد الله العادل ابن المنصور ـ « وكان يرمى بالميل الى البطالة وإيثار الشهوات والاخلاد الى الراحات » ـ وهنا انبرى العالم المحدث أبو الحسن بن القطان موضحاً الفرق بين المرشحين ، متمثلاً ببيت من الشعر :

اذا رتَّل القرآن في جنح ليله   أبي بن كعب لم يغن مخارق

وقد اتفق أهل الحل والعقد على تقديم أبي محمد عبد الواحد أخي المنصور في منتصف ذي الحجة عام ٦٢٠ هـ . ثم خلع وقتل صبراً بعد أشهر .. مما أدى الى طرد أبي الحسن ابن القطان من دخول القصر ومحاضر خواص الطلبة فيه ، وكان يكنى عنه متى جرى ذكره بـ « المخارق » .. وقد اشتد قلق أبي الحسن القطان من الأمير الذي لم يُفرط في عقوبته بسبب خدماته لأبيه وعائلته ..

إن الموقف الجريء الواضح قد يدفع صاحبه ثمناً غالياً .. ولاشك أن موقف ابن القطان كان صحيحاً يتفق مع أمانة المسؤولية والنصح التي ينبغي أن يتصف بها أهل الحل والعقد .. [2]

لاشك في حدوث هبوط في مستوى القادة عقدياً وخلقياً في بعض مراحل

---

[1] ابن حيان المقتبس ١٧٢ ، وانظر إحسان عباس الشورى في الأندلس ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

[2] محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة من كتابي الموصول والصلة ، السفر الثامن ، القسم الأول ص١٧٣ ـ ١٧٤ .

التأريخ الإسلامي ، وأحيأنا ينعكس الهبوط على جندهم ،كما حدث في الموصل في ولاية يحيى بن محمد عم أبي العباس السفاح عليها سنة ١٣٣ هـ حيث قتل ألوف المسلمين دون حق وبعد إعطائهم الأمان ودخلوا المسجد الجامع ، وقد قتل الجند العباسي الرجال والنساء والصبيان مما سجل تفاصيله مؤرخ الموصل ومحدثها أبو زكريا الأزدي (ت ٣٣٤ هـ) وسجل بشجاعة قول عويمر الأعرابي معقباً على تلك الأحداث : « كذب ـ والله ـ من زعم أن هؤلاء مسلمون » .[١] وقد نجم عن الصراع بين الأمير معز الدولة بن بويه والأمير ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل أن نهبت أموال العامة وسبيت النساء !!

ومثل هذا تكرر في أحداث أخرى وإن كانت محدودة أيضا ، مع أن القيم المتعلقة بحقوق حفظ الحياة والعرض والمال واضحة وصريحة ومؤصلة ففي القرآن (وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس) وفي الحديث « لايحل دم امريء مسلم يشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث ؛ الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .[٢] فلو كان وعي الجماهير بمدلول هذا الحديث وماسبق من قرآن ، فإنه لايتجرأ أحد على قتل النفس وسلب المال واغتصاب العرض دون خوف من الله ودون ردع من تشريع .. ويمكن أن نعزو بيع المناصب العامة في العصور العباسية المتأخرة بما فيها مناصب القضاء ، وكثرة مصادرات الوزراء والقادة والأغنياء الى ضعف الوعي الديني وتجاوز أحكام الشريعة ، وإن كانت بعض المصادرات لها ما يبررها من حيث عدم شرعية موارد الثروة ...

---

١ الأزدي : تأريخ الموصل ١٥١ .

٢ صحيح البخاري ٤ : ٣١٧ .

لقد استطاع الوزير أبو الحسن بن الفرات أن يتقلد الوزارة للمقتدر بالله بعد أن تعهد بتقديم مبالغ كبيرة للخليفة ولأمه المعروفة بالسيدة .. [1] ولما عجز الوزير حامد بن العباس عن دفع الأموال للخليفة وحاشيته كما كان يفعل ابن الفرات عزل عن الوزارة . وقد بلغت الجرأة بالأمير فخر الدولة البويهي واستهانته بالرأي العام أن استوزر ابن بقية صاحب مطبخه !! فصار الوزير أضحوكة وموضع تندر بين الناس . [2]

وقد سادت الفوضى وكثر قطاع الطرق واللصوص ببغداد في إمارة الدولة البويهية حتى عمد والي بغداد البويهي الى تعيين كبير قطاع الطرق حمدى رئيساً لشرطة بغداد ليتقاسم معه النهب ، فعاقبه الله بأن سقطت أخته لطيفة مع جواريها وهي عائدة عند المغيب من الحمام بيد اللصوص ، ولم يتمكن حمدى من اعادتها ، فما كان من الحاكم إلا أن أعلن أن أخته لم تخطف وانها في دارها مصونة ، وقد تحولت الى بغي في دار للبغايا ، فكانت تقول لزبائنها أنها أخت زفت الدولة تشهر به غضباً من فعلته الخسيسة . [3] وهذا كله يشير الى ضياع القيم الدينية في أوساط النخبة السياسية آنذاك .

ولاشك أن قوة السلطة ازدادت في العصر الحديث بسبب التدريب العالي وتراكم الخبرة وتوافر التقنية المساعدة على الضبط الاجتماعي ، مما يجعل من الضروري زيادة وعي الأمة العام للحفاظ على الحقوق والحريات والتكافؤ في فرص الحياة ، وعدم تحول السلطة الى قوة قمع واستعلاء واستغلال النفوذ لتحقيق مصالح أشخاص معدودين ..

---

١ حمدان الكبيسي : عصر الخليفة المقتدر بالله ص ٥٥٢ .

٢ الثعالبي : تحفة الوزراء ٥١ .

٣ ابن مسكويه : تجارب الأمم

إن الضمانات الدستورية والقانونية وحدها لاتكفي ، بل لابد من قيم دينية راسخة تحفظ الحقوق وتمنع التجاوز ، وأن تكون « التقوى » في نفوس الجميع حكاماً ومحكومين ، ومما يؤكد هذا المعنى تلك الفضائح التي تكشفت في بعض دول العالم والتي تتعلق بالتجسس على وسائل الاتصال الفردية دون أن يمنع من وقوع ذلك التقدم الاجتماعي ورسوخ المؤسسات الديمقراطية ... [1]

وقد يهبط مستوى الوعي الديني على صعيد الجماهير كلها ، فيشغلون بالدنيا ويرغبون عن الجهاد ، وقد تضعف النخبة الفكرية عن استنهاض الأمة ففي سنة ٤٩٢ هـ استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وقتلوا مايزيد على سبعين ألفاً وسرقوا محتوياته ، واستغاث الهاربون منهم بالخليفة المستظهر بالله « فندب الفقهاء الى الخروج الى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد ، فساروا في الناس ولكن لم يفد ذلك شيئاً » . [2]

إن ضعف الوعي الديني يسهل اختراق المجتمع من قبل المشعوذين والدجالين والراغبين في السلطان .. وهكذا كانت حركة الزنج جنوب العراق تشكل اختراقاً واسعاً للمجتمع حيث بلغ مقاتلوها ٣٠٠،٠٠٠. مقاتل . وهذا ينطبق على انتشار الحركة القرمطية في العراق والشام واليمن والبحرين ، ولو كان المجتمع الاسلامي محصناً بالوعي السليم لما سهل اختراقه من قبل هذه الحركات المعادية لقيمه ودينه ومصالحه ... والتي استباحت دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ..

إن تربية النخبة السياسية على معاني التواضع وتحريم الاستكبار ينعكس

---

[1] الاشارة الى عهد نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

[2] ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٧٢ .

على الحياة الاسلامية بصورة إيجابية كما لاحظنا في عصر الراشدين بصورة متصلة وفي العصور اللاحقة بصورة نسبية متفرقة . إن المعلم الأول صلى الله عليه وسلم طلب من أحد أتباعه أن يقتصَّ لنفسه منه ، وأخبر عن الله تعالى قوله : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار » [1] ، وقال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان .. يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال » [2] ، وهذا جزاء من جنس العمل ، فقد أذلوا العباد في الدنيا وهم يذلون في الآخرة أمام العباد .. والمستكبرون في الأرض إن كانوا من أصحاب النفوذ والسلطان يحيلون العباد الى عبيد يسترقونهم ويستذلوهم ، ويمنعون عنهم الحقوق الطبيعية في الحرية والكرامة والتملك والتصرف ، بل ويمنعونهم حق اختيار العقيدة التي يدينون بها ، ويحملون قيمها وأفكارها ، وهو أمر يحرص عليه الأحرار من بني الانسان أكثر من حرصهم على لقمة العيش ولذائذ الحياة وطيبات الدنيا .

إن المستكبرين في الأرض يمنعون الناس من التعرف على الله تعالى وعبادته لأنهم بذلك يبصرون الحق والباطل ، وتتفتح عقولهم على ظلم الاستكبار ومغازيه ، ويتولد عندهم الوعي بالحقوق الانسانية التي وهبها الله تعالى لعباده ، فيرفضون الظلم والطغيان والعدوان على حقوق الانسان ، لذلك يبلغ الأمر بالمستكبرين أن يقتلوا الأنبياء ورموز الدعوة الى الله كما في القرآن (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) [3] ، وقد ضرب القرآن

---

[1] سنن الترمذي : ٤ : ٦٥٥ حديث رقم ٢٤٩٢وقال : حسن صحيح .

[2] سنن أبي داود ٤ : ٣٥٠ حديث رقم ٤٠٩٠ .

[3] غافر ٦٠ف .

من فرعون وهامان وقارون نماذج للأفراد المستكبرين .[1]

كما مثل للقوة الجماعية المستكبرة بعاد حيث تمثلت قوتهم بأجسادهم الضخمة وعمارتهم الحصينة ومدنيتهم المتقدمة دون أن يمتلكوا حضارة روحية وقيما إيمانية[2] . وأوضح مايقع فيه المستكبرون من عبادة الذات وتعظيم قدر النفس (إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه) .[3] فليست عظمتهم حقيقية ، بل توهم وخيال مريض ، ومن هنا اقترن الكبر بالجبروت والظلم للآخرين (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار)[4]، ويخيل لبعض المستكبرين أنهم ليسوا من جنس البشر ، فقد كان عظماء اليونان ينسبون أنفسهم إلى الآلهة التي ابتدعتها تصوراتهم الباطلة ، وسرى ذلك منهم إلى أمم الغرب في العصور الوسطى حتى جعلوا دماء الناس وأعراقهم متباينة فمنها ماهو دم ملكي أزرق مقدس ومنها ماهو رذيل ، واستمر ذلك حتى الثورة الفرنسية ١٧٨٩ م .

لقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم مطالب الاستكبار عندما طالبه الملأ من المشركين أن يطرد المستضعفين مظهرا اعتزازه بالإنسان المسلم (ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه)[5] إذ لامكان في المجتمع الإسلامي للعنجهية والصلف والكبرياء والاستعلاء على العباد ،

---

[1] سورة الشعراء ٤٩ ـ ٥٠، القصص ٧٨، العنكبوت ٣٩ ـ ٤٠ .

[2] فصلت١٥ هود ٥٩ ـ ٦٠ الفجر ٦ـ ١٤ الحاقة ٦ـ ٨ ففيها تجد الإشارات القرآنية إلى قوم عاد.

[3] غافر٥٦ .

[4] غافر ٣٥ .

[5] الأنعام ٥٢ .

فالناس سواسية كأسنان المشط ، و « كلكم لآدم وآدم من تراب ». إن التوجيهات الإسلامية حول المساواة ، وتكافؤ الفرص بين الناس والتزام العدل المطلق بينهم لم تكن مجرد نظريات بل أخذت مجراها في الواقع التاريخي سواء في دائرة الحكومة أو القضاء أو العلاقات الدولية . وربما من أجل ذلك كله قال هيجل (ت١٨٣١) « ويعتبر المبدأ الإسلامي - أو روح التنوير في العالم الشرقي - أول مبدأ يقف في وجه البربرية »[1] .

ويمكن القول أن ظهور الطغاة على مسرح الحكم في تاريخ العالم الإسلامي أخف وطأة من بقية التواريخ العالمية ، لأن مستوى الطغيان يهبط بسبب القيم الروحية والتربية الدينية وخاصة خلال القرون الأولى منذ ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة العباسية (٦٥٦هـ) على يد المغول .

ومع ذلك يمكن تسجيل حالات عديدة من النزعة الاستبدادية المتطرفة : يقول عبد الله بن بلقين آخر ملوك بني زيدي بغرناطة (٤٦٩ - ٤٨٣ هـ) : «وهل الملك والمال إلا للتزين والتجمل به » ثم يبرر في كلامه بعد ذلك شرب الخمرة واستعمال الغلمان !![2] فأين نظرته من نظرة عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز لمسؤولية الملك والخلافة ؟ فلا عجب اذا كانت نهاية حكم أسرته على يديه . فهي إحدى سنن الله في سقوط الدول بسبب الفساد والطغيان ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولنتمعن في كلام إسماعيل بن ذي النون أحد ملوك الطوائف بالأندلس يقول : « والله ماأولي غير نفسي ، ولاأقوم إلا بسلطاني ، ولو نازعنيه فلان وفلان - وذكر السلف الصالح الذي كرم الله ذكرهم - لضربتهم دونه بسيفي

---

[1] هيجل : محاضرات في فلسفة التأريخ ٢٥٠ .

[2] الأمير عبد الله بن بلقين : التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة ٢٠٣ . (تحقيق ليفي بروفنسال ، نشر دار المعارف بمصر) .

ماستمسك بيدي »[1].

إن مثل هذا الحاكم الفاسق عندما يتجرأ على رموز الاسلام من الصحابة علنا يتحدى الرأي العام وهو مطمئن الى انه لن يتعرض لخطر فقدان سلطته، مادامت مؤسسات الشورى ليست قوية ومادام السلطان بالغلبة ، ومادام التغيير يفضي الى أخطار ومفاسد لمايسفك فيه من الدماء وينتهك خلاله من الحرمات إضافة الى التخريب وضياع الاموال .. وهو التبرير الذي تقدم به جمهور الفقهاء لمنع الخروج على الحاكم الفاسق والظالم وهو تبرير معقول في القرون السالفة ، لكنه لم يعد كذلك في العصر الحديث إلا في نطاق العالم الثالث ، والا فإن وعي الرأي العام وظهور المؤسسات الدستورية والشورية القوية تجعل بالامكان عزل الحاكم الظالم دون وقوع دماء وانتهاك حرمات وضياع اموال ، ونحن نشهد قيام حكام وسقوط آخرين في ظل النظم الديمقراطية الغربية دون وقوع المفاسد التي تزيد على مصالح قيام حكم عادل .[2]

إن الرأي الفقهي الذي يميل الى عزل الحاكم الظالم والفاسق إذا كانت مؤسسات الدولة وقوة الرأي العام تكفل ذلك دون مفاسد أعظم من مصلحة العزل هو الذي يتفق مع أصول الحكم في الاسلام أما احترازات الفقهاء

---

[1] ابن بسام الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٣: ٥١٦ ، وإحسان عباس الشورى في الأندلس ٣٥٥ .

[2] ولكن من الحق القول بأن صور الاستبداد التي تعكسها روايات ماركيز واستورياس عن حكام أمريكا اللاتينية في القرن العشرين لانجد لها مثيلاً في تأريخنا حتى منتصف القرن العشرين حيث ظهر بعد ذلك بعض النماذج المشابهة في بقاع من العالم الاسلامي (ماركيز : خريف البطريق ولا أحد يكاتب الكولونيل ، واستورياس : السيد الرئيس) .

الذين لايرون العزل إلا باظهار الحاكم الكفر البواح فهو احتراز مبني على مراعاة مبدأي « المصالح المرسلة » و « سد الذرائع » وهو لايشكل قاعدة عامة لكل زمان ومكان وقد زالت العلة في العصر الحديث بتنامي الوعي الانساني العام وبظهور المؤسسات الشورية القوية في النظم العصرية ..

ويمكن أن ندعم هذا الرأي بما ذهب اليه عدد من أهل العلم قديماً وحديثاً ، فقد قال ابن تيمية : « .. وهذا بعينه هو الحكمة التي رعاها الشارع صلى الله عليه وسلم في النهي عن الخروج على الأمراء ، وندب الى ترك القتال في الفتنة ، وإن كان الفاعلون لذلك يرون أن مقصودهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لكن اذا لم يزل المنكر إلا بما هو أنكر منه صارت إزالته على هذا الوجه منكراً واذا لم يحصل المعروف إلا بمنكر مفسدته أعظم من مصلحة ذلك المعروف ، كان تحصيل ذلك المعروف على هذا الوجه منكراً»[1] . وقال إمام الحرمين الجويني : « فلا يطلق للآحاد في أطراف البلاد أن يثوروا ، فإنهم لو فعلوا ذلك لاصطلوا وأبيدوا ، وكان ذلك سبباً في ازدياد المحن وإثارة الفتن ، ولكن إن اتفق رجل مطاع ، ذو أتباع وأشياع ، ويقوم محتسباً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، وانتصب بكفاية المسلمين مادفعوا اليه ، فليمض في ذلك قدماً والله نصيره على الشرط المقدم في رعاية المصالح والنظر في المناجح ، وموازنة مايندفع ويرتفع بما يتوقع » .[2] وقد لخص السيد رشيد رضا آراء أهل العلم بأنهم يرون أن أهل الحل والعقد يجب عليهم مقاومة الظلم والجور والانكار على أهله بالفعل وإزالة سلطانهم الجائر ولو بالقتال اذا ثبت عندهم أن المصلحة في ذلك هي

---

١ منهاج السنة ٢ : ٤٢٣ .

٢ غياث الأمم في التياث الظلم ص ٨٨ ـ ٨٩ . ط . دار الدعوة بالاسكندرية .

الراجحة والمفسدة هي المرجوحة .[1]

لقد آن الأوان ليتخلص المسلمون من تأثير الآراء التي حكمتها ظروف تأريخية وان يعيدوا الفاعلية للشورى وأن يقتربوا من روح المبادئ السياسية الاسلامية بالحفاظ على حقوق الانسان في المشاركة باتخاذ القرار السياسي فضلاعن حقوقه الاخرى التي منحه اياها الخالق عزوجل.

إن المشكلة السياسية لاتقتصر على واقع التجزئة في العالم العربي والاسلامي بل تنفذ الى نظم الحكم السائدة ومدى قدرتها على النهوض بالأمة حضارياً تلك القدرة التي تستند أولاً على الملاءمة بين النظم وعقيدة الأمة وتراثها ، إن عملية نقل النظم الجاهزة والتي تبلورت عبر قرون عديدة من التطور السياسي في عالم الحضارة الغربية بشقيه الديمقراطي الرأسمالي والماركسي لايولد سوى الفجوة بين الأمة والنظام ، إن النظم المنقولة تشبه إدخال كيان غريب الى جسم الانسان إذ سرعان مايعمل الجسم على مقاومته ولفظه .. وبدلا من أن يساعد النظام على النهضة فإنه يعيقها ، ويبدد جهود الأمة في الصراع ضده والسعي الى لفظه بدلاً من الصراع ضد الجهل والفقر والمرض الناشيء عن التخلف الحضاري .

إن النظام الاجتماعي والسياسي لايمكن أن ينقل من بيئته الى بيئة مغايرة في التراث الثقافي ، لأنه لصيق ببيئته التي نشأ وتطور فيها ، تحميه تربتها وتغذي جذوره ثقافتها وتحيط سياجه أعرافها وتقاليدها .. إن بعض المقاطعات السويسرية لازالت تعتمد قانوناً غير مكتوب ، فالعرف والتقاليد صارت بسبب ثبوتها وديمومتها أقوى من أي شيء مكتوب . والديمقراطية الغربية ترتكز على جذور تمتد قروناً في ماضيها السياسي . ومن هنا فشلت عملية

---

[1] الخلافة أو الامامة العظمى ص٤١ .

نقل النظم الى العالم الاسلامي الذي ينبغي أن يحيي تجاربه الذاتية في الشورى وتطبيقاتها المرتكزة على تراثه الثقافي ، وعندها سيجد تجاوباً عميقاً من الشعوب التي ستحمي الشورى بدافع من عقيدتها وتراثها فضلاً عن مصالحها الحيوية في التأكيد على كرامة الانسان وكفالة حرياته العامة واحترام رأيه ومشاركته في بناء حاضره ومستقبله .

إن التأكيد في دراسة تأريخنا السياسي على الجوانب الايجابية من الشورى والحرية والكرامة الانسانية وانتقاد عهود الاستبداد والطغيان لابد أن يولد الاتجاه السليم المتفق مع العقيدة والشريعة .

إن رفض تحكيم المعايير والقيم الخلقية في الدراسة التأريخية بحجة النسبية والتغيير الذي يلحقها وبحجة أن التأريخ لايعيد نفسه لإبطال القياس أفضى إلى مهزلة خداع البشرية بعظم منجزات الفراعنة المتمثلة ببناء الأهرام والبابليين المتمثلة في بناء الجنائن المعلقة دون الإشارة إلى معنى الانحطاط الإنساني والعلاقات التسلطية التي سيقت بموجبها الأيدي العاملة قسرا وأحيانا سخريا - دون مقابل - لإرضاء شغف الحاكم الطاغية بخلود الذكر عن طريق صرح هائل يدوم طويلا مادام لايستطيع أن يخلد بشخصه جاثما فوق صدور العباد المستضعفين، وبدل أن ينكر المؤرخ الإذلال المقيت للشعوب والطغيان المستكبر فإنه يمتدح الأعمال باعتبارها منجزات حضارية تدل على التقدم في فن العمارة والهندسة والرياضيات والتكنولوجيا وبذلك يسهم في خدمة الطغيان بإيجاد القبول النفسي له، إن هذا لايعني عدم التسجيل الموضوعي للمنجزات المادية للعصور ولكن المطلوب عرضها ضمن الصورة الكلية والتي تبرز في تفاصيلها صور العذاب المقيت الذي عاناه الإنسان في عصور التأريخ بسبب الاعوجاج في مستوى العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

الفصل الثالث

وحـــدة الأمـــة

الوحدة الاسلامية من منظور العقيدة الدينية :

لايمكن التشكك في وحدة الأمة الاسلامية من الزاوية العقدية سواء أسند الواقع هذه المقولة أم عارضها ، لأن النصوص في وحدتها قطعية الثبوت والدلالة فلا مجال للاجتهاد معها ، إذ لااجتهاد في موضع النص إذا كان قطعي الثبوت والدلالة .

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية أكدت على وحدة الأمة الاسلامية في مواضع عديدة : (وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) .[1] وقد وصف الله الأمة الاسلامية بالوسطية : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .[2] ووصفها بالأفضلية (بالخير) : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) .[3]

ووصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أمة واحدة ، وبالانفتاح على

---

١ المؤمنون ٥٣ .

٢ البقرة ١١٠ .

٣ آل عمران ١٤٣ .

الآخرين من الذين ينتمون اليها بانتمائهم للاسلام وذلك في وثيقة المدينة المشهورة التي كتبها بين المهاجرين والأنصار ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم حيث ورد في مقدمتها (أنهم أمة واحدة من دون الناس).

وقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم كلمة (أمتي) في أحاديث كثيرة للدلالة على أتباعه المؤمنين برسالته ، وكل المسلمين في كل زمان ومكان هم أتباعه وهم أمته .[1] كما استعمل صلى الله عليه وسلم مصطلح (أمة المسلمين) ، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالمحافظة على وحدتهم ، ووصف الفرقة بالكفر فقال : « لاترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وقد شملت الأمة الاسلامية قوميات عديدة تختلف في لغاتها وعناصرها وتواريخها القديمة ، لكن دخولها في الاسلام وتثقفها بثقافته وتطبعها بقيمه وسلوكياته قارب بينها بحيث أصبحت تحس بقوة الارتباط بينها ليس بسبب اتحاد مصالحها بقدر ماهو التجانس الروحي والتشريعي والثقافي والسلوكي الذي غلب عليها ، وهذا يرجع الى طبيعة الاسلام وشموله لجوانب الحياة وتغييره الكبير في الانسان والمجتمع عقيدة وسلوكاً وثقافة ونظماً .

ولازالت أحاسيس المسلمين بالوحدة قوية حتى العصر الحديث ، ورغم كثرة الانقسامات السياسية وواقع التجزئة الذي يعيشونه خلال القرنين الأخيرين بعد سيطرة القوى العالمية على أجزاء واسعة من عالم الاسلام .

إن الامتداد الجغرافي لعالم الاسلام هائل يشتمل على مناطق واسعة من قارتي آسيا وأفريقيا ، وهو يعج بالمشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية . فرغم الاحساس بين الجماهير بوحدة المصير فإن

---

[1] راجع كلمة (أمة) في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي .

المواقف الاقليمية والقومية والقطرية لازالت بحاجة الى تنسيق كبير لتعبر عن الاحساس الصادق بوحدة الأمة ..

الجذور التأريخية للوحدة الإسلامية :

لاشك أن ثمة عوامل للشد والجذب نحو المركز هي التي تحافظ على وحدة الأمة ، كما تشد جاذبية الأرض ماعليها من أشياء وأحياء وتمنع تطايرها وافتراقها في الكون الواسع ..

إن وحدة العقيدة والثقافة (لغة ، تاريخ ، تقاليد وأخلاق) ثم المصالح القائمة على عناصر جغرافية وسياسية واقتصادية هي أقوى دعائم وحدة الأمة الاسلامية منذ فجر التأريخ الاسلامي . وقد امتدت الدولة التي أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الراشدون الى منتصف القرن السابع الهجري عندما سقطت بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ مع مرورها بأحوال متقلبة من الازدهار والقوة والضمور والضعف . حيث من الصعب أن نعتبر تغير السلطة من الأسرة الأموية الى الأسرة العباسية نقطة تحول سياسي أو حضاري في العالم الاسلامي ، فإن الامتداد واضح في حركة الدولة والمجتمع حضارياً وسياسياً وعسكرياً ، فلم يطرأ تغير جوهري ، خلافاً لما حدث عقب سقوط بغداد من انهيار حضاري وسياسي لعالم الاسلام ...

فالقيادة العباسية لاتختلف عن سابقتها الأموية لغةً وحضارةً وعقيدةً ، وقد حاول البعض من المؤرخين في العصر الحديث تصوير الدولة الأموية على أنها عربية التوجه ، وأن الدولة العباسية اسلامية التوجه ، بدليل المشاركة الفاعلة للفرس والترك في دواوينها ومؤسساتها المدنية والعسكرية .. والحقيقة أن الأمويين عينوا الكثيرين من الموالي في دواوين الدولة كما تثبت ذلك قوائم أسماء الموظفين التي سجلها خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) في تاريخه ، وأن اعتماد الأمويين على العرب بالدرجة الأولى يرجع الى قرب عهدهم بعصر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين حيث قامت

الدولة الاسلامية على أكتاف العرب ، فالقرآن عربي والرسول عربي والصحابة عرب ، ومن الطبيعي أن تكون « النخبة » القيادية عربية في القرن الأول ، فما حدث من اختلاط النخبة بعناصر أخرى في العصر العباسي هو نتيجة امتداد الاسلام خارج الجزيرة العربية وخاصة في إيران وماوراء النهر مما جعل مشاركة غير العرب تزداد على مرِّ الأيام .. فكان التطور التأريخي والالتحام بين قوميات شتى سبب ازدياد نفوذ الفرس والأتراك في العصر العباسي ، ولم ينجم ذلك عن تغيير فكري وسياسي بعد انتقال السلطة الى العباسيين .

إن أثر العقيدة في وحدة عالم الاسلام اكتسب قوته من الوعي الاسلامي العميق لدى النخبة المثقفة التي بذلت جهداً أخلاقياً من أجل الوحدة والتقدم والتي أثرت على وجهة الجماهير الواسعة خلال القرون الأولى رغم فقدان مؤسسات الشورى القوية وانحصارها في أهل الحلِّ والعقد المقربين من « السلطة » واستبعاد المعارضين عن الحوار في أغلب مراحل تأريخنا ، فكانت المعارضة تلجأ الى السيف دائماً ، هكذا فعلت أحزاب المعارضة ضد الأمويين حتى انقض العباسيون عليهم بالقوة ، فهل التزمت المعارضة بأقوال الفقهاء ؟ وهل التزمت السلطة قبلهم بذلك ؟ إن المنتصر كان يكتسب الشرعية دائماً ولازالت المعادلة سليمة حتى الوقت الحاضر .

ولاشك أن القرآن والسنة أكدا على وحدة الأمة ، وحصَّناها من الفرقة بالترغيب والترهيب والتبصير والتحذير . ولكن الرؤية التأريخية لايمكن أن تغفل أثر العامل الجغرافي سواء أكان إيجابياً تمثل في اتصال رقعة العالم الاسلامي الجغرافية دون فواصل طبيعية وسياسية .. أم كان سلبياً تمثل في سعة الدولة مع قصور وسائل الاتصال القديمة ..

كما لايمكنها أن تغفل أثر الاختلاف بين القوميات الاسلامية ، والتي نازع بعض قيادييها السلطة المركزية وحاولوا التأكيد على « المحلية » وإنعاش

لغة وثقافة متميزة أدت الى إضعاف وحدة الأمة الاسلامية ونشوء الدويلات الاسلامية منذ القرن الثالث الهجري ، لتحقيق الذات الوطنية على حساب الذات الاسلامية .

وكذلك لايمكن التقليل من أثر العامل الاقتصادي في المجتمع الاسلامي الأول حيث يقوم الاقتصاد الزراعي والتجارة والصناعة اليدوية المحدودة ، وحيث يتهدد هذا الاقتصاد باختلال الأمن وخاصة على الطرق الخارجية للتجارة ، وسوف يحتاج المؤرخ لمعرفة حركة رؤوس الأموال في الدولة الاسلامية بسبب الاقتصاد المفتوح الذي انتهجته الدولة في القرون الأولى ، كما يحتاج الى تقويم لمدى توافر العدل الاجتماعي في توزيع الثروة ، وما أصابه من اختلال في مراحل من تأريخ الأمة الاسلامية . ولاننس طبيعة التركيبة الاجتماعية للقوميات الاسلامية والتي يغلب عليها الطابع القبلي الذي نازع روح الاسلام ومبادئه منازعته للتقدم والوحدة .

واذا كان للنخبة القائدة أثر خطير في ترسيخ الوحدة ودفع عجلة التقدم فيلزم أن ندرس كيف تكونت « النخبة » السياسية والفكرية في الدولة الاسلامية ، وماهي القيم التي تشبعت بها قبل أن تتولى « السلطة » وخلالها . فالمؤدبون أثروا في تكوين « النخبة السياسية » الثقافي والديني ، في حين أثرّ العلماء في تكوين « النخبة الفكرية » ، فما أثر النخبة السياسية والفكرية في الحفاظ على وحدة الأمة .. ولاشك أن النخبة السياسية لاتنحصر في الخلفاء بل تتعداهم الى القيادات الأخرى من وزراء وسلاطين وقادة عسكريين وكبار موظفي الدولة الآخرين ... ودراسة تاريخ « النخبة » مهم لموقعها الخطير وتأثيرها العميق في التوجهات السياسية والعقدية للدولة والمجتمع . ولاينبغي أن تنحصر النماذج في عصر السيرة والراشدين بل ينبغي أن تشمل سائر مراحل تاريخنا .

- إن وزيراً مثقفاً وحازماً مثل نظام الملك ترك طابعه على الحياة الثقافية -

بإنشائه النظاميات ـ عدة قرون ، وهي مدارس احتضنت أعداداً غفيرة من طلبة العلم وغرست فيهم القيم الاسلامية ومنها وحدة الأمة الاسلامية ..

وإن سلاطين أمثال ملكشاه ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي أثروا في تاريخنا السياسي تأثيراً إيجابياً عظيماً ، وحركوا الرأي العام نحو أهداف إيجابية تحمي الوحدة وتعزز القوة في مواجهة الغزاة . ولايمكن أن نتجاوز تقويم الشخصيات التي أثرت بصورة إيجابية في مسيرة أمتنا .. كما ينبغي بيان الأثر السلبي لخلفاء ووزراء وعلماء أعاقوا التقدم واستغلوا مواقعهم للاثراء والتمتع الرخيصين ..

إن الاتجاه نحو الاستبداد السياسي والحكم الفردي يتعمق في ظل مفاهيم مغايرة لروح الاسلام وتعاليمه ، فقد كان الخليفة في عصر الراشدين يستمد سلطته من الأمة عن طريق أخذ البيعة له منها ، ويتم الصفق على يديه مباشرة ، وبسهولة كان الناس يدركون أن الخليفة يتعاقد معهم على تنفيذ الشريعة ونصرة العقيدة وحماية المجتمع والحفاظ على وحدة الأمة ، ولم تكن له سلطة كهنوتية ، ولايختلف دمه عن دماء الآخرين ، ولايتمتع بقدسية ، ولكن له الاحترام والطاعة في حدود طاعة الله وشرعه ..

ومع الأيام بدأت تظهر اصطلاحات ومفاهيم جديدة تولد الغبش في طبيعة التعاقد بين الأمة والسلطة ، وحدود العلاقات بينهما ، ومكانة الخليفة ومصدر سلطته ..

فعندما قامت الثورة العباسية أثر دعوة طويلة امتدت ثلث قرن من الزمان (٩٨ ـ ١٢٩ هـ) رفعت لواء يدعى الظل وراية تدعى السحاب ، وفسِّرت التسميتان بأن السحاب كما يطبق جميع الأرض كذلك بنو العباس تطبق

دعوتهم أهل الأرض . وأن الأرض كما لاتخلو من الظل فكذلك بنو العباس لاتخلو الأرض من قائم منهم .[1] وربط ابو العباس السلطة السياسية بأمور غيبية وكأنه يقرأ في اللوح المحفوظ بقوله : « اعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم » .[2] وفي خلافة المهدي العباسي وصفه أحد الشعراء بأنه « خليفة الله في الأرض »[3] ، وكرر هذا الوصف الأمير البويهي عضد الدولة مع الخليفة العباسي فكان يبالغ متظاهراً باحترامه فينحني أكثر من مرة قبل وصوله للسلام عليه ، ولما أنكر البعض عليه متسائلاً : « أهذا هو الله ؟ » قال عضد الدولة : « هذا خليفة الله في الأرض ».[4]

إن إيمان الجماهير بوحدة الأمة الاسلامية كان له تأثير على الحياة السياسية حتى في عصور الضعف والانحطاط السياسي ، وربما يعود له الفضل الأكبر في الحفاظ على الوحدة الشكلية للأمة الاسلامية في عصر الدويلات . فقد عمدت معظم الدويلات الاسلامية المنشقة عن الخلافة العباسية الى استحصال التقليد الرسمي لحكامها من قبل الخليفة وذلك لاثبات شرعيتها أمام الجمهور ، ورغم الانتصارات العظيمة التي حققها المرابطون في المغرب بقيادة يوسف بن تاشفين ، فقد طلب يوسف من الخليفة المقتدي بأمر الله التقليد والخلع فأجابه الى ذلك ، وكان علماء الأندلس قد رفضوا طاعته حتى يحصل على التقليد من الخليفة العباسي الذي يمثل رمزاً لوحدة الدولة

---

١ ابن كثير : البداية والنهاية ١٠ : ٣٢ .

٢. ابن الأثير : الكامل في التأريخ ٥ : ٤١٥ .

٣ فاروق عمر فوزي : الألقاب ص .

٤ السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٠٨ .

والأمة ... [1]

ويظهر أثر العقيدة في تربية النخبة السياسية عندما كان الصليبيون يهددون قطراً من الأقطار الاسلامية حيث كان يستنجد بالأقطار الأخرى .. وعندما هددوا سنة ٥٦٤ هـ مصر استنجد حاكمها الخليفة العاضد بنور الدين محمود فأرسل اليهم قائده أسد الدين شيركوه فلما دخل مصر اغتاظ منه قائد جيوشها المدعو شاور وعزم على اغتياله والسيطرة على جنده ، ولما أخبر ابنه الكامل بعزمه حذَّره قائلاً : « والله لئن عزمت على هذا لأعرِّفنَّ شيركوه . فقال الأب : والله لئن لم نفعل هذا لنقتلنَّ جميعاً . فقال الابن : صدقت ، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج »[2].

إن من الصعوبة بمكان إهمال تأثير الرأي العام على السلطة السياسية في تاريخنا المبكر ، سواء تمثل بالتفاف طلبة العلم حول قيادات من العلماء أو تمثل بحركات شعبية منظمة مثل حركة العيارين والشطار التي لايمكن إغفال أثرها في مقاومة قوات المأمون في حصار بغداد حيث تحول اللصوص والعيارين الى أبطال يدافعون عن السلطة الشرعية .. ولاإغفال محاولة عمال البناء في مدينة الموصل تدبير مؤامرة للقضاء على عماد الدين زنكي وتسليم الموصل للخليفة المسترشد انتصاراً للسلطة الشرعية مما أدى الى إعدامهم أثر فشل حركتهم . [3]

ولما أسر الخليفة المسترشد من قبل السلطان السلجوقي مسعود ثار أهل

---

[1] ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٥٥ ، وابن خلدون : المقدمة ٦ : ٢٥٠ .

[2] ابن الأثير : الكامل في التأريخ ١١ : ٣٣٩ .

[3] ابن الأثير : الكامل ١١ : ٦ .

بغداد معلنين سخطهم على مسعود ، وكسروا المنبر وطالبوا بأخذ الثأر ، وخرجوا يبكون ويحثون التراب على رؤوسهم ، وتفاقم الأمر بحدوث قتال شديد بين العامة وبين الشحنة (مدير الشرطة) وأتباعه ، وقتل من العامة مايزيد على مائة وخمسين قتيلاً .. » . [1]

لقد ظهرت تنظيمات للحركات السياسية والاجتماعية في التأريخ الاسلامي في وقت مبكر كما في الحركات العلوية والخارجية وكما في الدعوة العباسية ثم حركات الشطار والعيارين ... وكما في الحركات المعادية للاسلام مثل الاسماعيلية والقرمطية والزط والزنج . ولكن السلطة الاسلامية لم تحاول استحداث تنظيم اجتماعي وسياسي يدعمها بل اعتمدت على تنظيم الدولة الاداري والعسكري والأمني ، ولكن في منتصف القرن الرابع الهجري ظهرت حركة الأحداث في الشام والجزيرة الفراتية ، والتي تمثل جماعة شعبية ساندت القوات النظامية في حفظ الأمن والقيام بمهام الدفاع المدني ، وكان مبعث ظهورها الشعور بعدم الاستقرار والأمان أثر ضعف سيطرة الدولة العباسية واشتداد الحملات البيزنطية من الخارج وغارات البدو والقرامطة من الداخل مما دفع السكان في المدن والقرى الى تنظيم أنفسهم [2] ، وكذلك تدخلت السلطة في خلافة الناصر لدين الله العباسي لاستحداث تنظيمات الفتوة ، وذلك لتوجيه حركة الشطار والعيارين في إطار اجتماعي وأخلاقي سليم يخدم الدولة والمجتمع ، وقد عمّ نظام الفتوة القسم الشرقي من العالم

---

[1] ابن القلانسي : ص ٢٥٠ ، وابن الجوزي : ١٠ : ٤٦ ، وابن الأثير : الكامل ١١ : ٢٦ .

[2] نوري القيسي : الفتوة ، مجلة المجمع العلمي العراقي ـ مجلد ٤٣، ٣ : ١٩٧

الاسلامي [1] ، وترأس الناصر هذا التنظيم في العاصمة كما ترأسه الأمراء في الأقاليم .

ورغم تشابه نظام الآخية الذي ظهر بعد الغزو المغولي وسقوط بغداد في بلاد التركمان والروم مع نظام الفتوة فإن الحركات الصوفية هي التي وقفت خلفه ودعمته وليست السلطة السياسية ، وكانت تنظيمات الآخية شبه عسكرية ولهم تقاليد في الكرم والمروءة والتصدي للمستبدين وترسيخ الأخلاق الاسلامية ، وتمثل الزوايا الصوفية قواعدهم التي فيها يجتمعون ومنها ينطلقون . [2]

والحق أن السلطة والمجتمع استفادا من التنظيمات الاجتماعية ، ولكن بمرور الزمن ضعفت سيطرة الدولة على التنظيمات فعادت الى حركات شطار وعيارين ذات آثار سلبية ، وانقسمت بين الأمراء والزعماء المتصارعين على السلطة ، مما جعلها تسهم في الانقسام وتمزيق وحدة الأمة.

التأريخ المشترك :

هل ثمة تأريخ مشترك بين المسلمين ، وهل بدا بدايه واحده ، وماهي جذوره التأريخية ؟

إن الدولة الاسلامية في عصر الرسالة والراشدين والأمويين ضمت العرب والفرس والأفغان وبعض ديار الترك في آسيا والبربر في شمال أفريقية والغوط في الأندلس رغم أن الثقل الكبير استند الى أكتاف العرب بحكم بزوغ الاسلام فيهم ، ولم يتم توسع عسكري مؤثر في جغرافية الدولة الاسلامية بعد ذلك سوى على يد العثمانيين الذين أضافوا أقساماً من شرق أوربا ولكن

---

[1] المرجع السابق .

[2] المرجع السابق .

انتشار الاسلام فيها لم يتسم بالشمول والأغلبية فبقيت منطقة محتلة ، وعندما تخلصت من سلطان العثمانيين السياسي تحوَّل المسلمون فيها الى أقليات مضطهدة .

ولكن لايخفى أن انتشار الاسلام السلمي في شرق آسيا ضمَّ الى العالم الاسلامي أندونيسيا وماليزيا .. كما أن انتشار الاسلام بين قبائل التتار في وسط آسيا أدى الى زيادة رقعة العالم الاسلامي في منطقة واسعة خضعت للنفوذ الروسي لكنها ظلت محافظة على طابعها الاسلامي حيث يشكل المسلمون الأغلبية الساحقة في تركستان وطاجيكستان .

إن عدم مشاركة المسلمين الداخلين في الاسلام متأخراً ـ في القرون التي تمزقت فيها قوة الاسلام السياسية والعسكرية ـ في صناعة أحداث التأريخ الاسلامي في القرون الأولى ، لايمنع من إحساسهم التأريخي بها وتعلقهم برموزها وخاصة عصر السيرة والراشدين ..

فالتأريخ المشترك لاينحصر بالمشاركة في الواقع التأريخي فقط بل يتعداها الى الاحساس الوجداني الذي تغذيه العقيدة الاسلامية ...

إن الالتحام وتوحد الموقف بين القوميات الاسلامية واضح في الأزمات التأريخية الكبرى كما هو واضح في الأزمات المعاصرة (فلسطين وأفغانستان) .

إن أثر السلاجقة في الدفاع عن العالم الاسلامي في القرن الخامس والسادس الهجريين سواء بمواجهة الروم أو االصليبيين ، وتصدي المماليك بمصر لموجة التتار والصليبيين ، وحماية العثمانيين للعالم الاسلامي عدة قرون كلها أدلة قوية على تلاحم الشعوب الاسلامية ووحدة تاريخها ...

ولكل قومية اسلامية الحق في توحيد أبنائها على أن لاتستخدم العصبية العنصرية في سبيل الوحدة ، تمهيداً لالتقاء القوميات في كيان أوسع ، وهو كيان يحقق لها مصالحها الكبرى بتنسيق اقتصادياتها ومحاولة الاكتفاء

الغذائي والصناعي بالتكامل والتنوع في خططها الاقتصادية ، كما يحقق لها ثقلاً دولياً يوازي أعدادها البشرية ومساحتها الجغرافية وقدراتها الاقتصادية .

إن الكيان المطلوب لن يمنع نشأة آداب بلغات محلية الى جانب اللغة العربية التي تترشح أن تكون لغة الجميع بحكم كونها لغة القرآن والحديث ولتقبل الشعوب الاسلامية لها وتعلقها بها ورغبتها في تعلمها مما لاتحظى به أية لغة قومية أخرى ، وبالتالي فلن تتنافس اللغات المحلية معها . إن هذا التصور لايعكس تغليباً لمصلحة قومية معينة ، بل إنه محاولة لايجاد لغة واحدة يتقبلها الجميع ، وهي تشبه الاقتراحات المعاصرة بإيجاد لغة تفاهم عالمية الى جانب اللغات القائمة في عصرنا .

ومن الطبيعي الاقرار بأن وحدة الأمة الاسلامية مطلب شرعي ، ولكن أهداف الشريعة قد لاتتحقق إلا بخطوات متدرجة مرحلية ، ومن هنا ينبغي تأييد رفع الحدود أو تخفيف القيود بين الأقطار العربية أو غيرها من القوميات الاسلامية مما يعتبر توجهاً تقدمياً يحقق من المصالح القدر الذي تسمح به الظروف الحاضرة ، ولايحول دون التوسع مستقبلاً نحو شكل كونفدرالي ثم فدرالي ثم اندماجي وقد يحتاج ذلك الى تطور المنطقة حضارياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً خلال عقود عديدة للوصول الى تحقيق أهداف الاسلام الشاملة ..

إن تحقيق التفاهم والتنسيق بين الأقطار العربية وانفتاحها على بعضها اقتصادياً وسياسياً هو مرحلة أساسية في البناء الاسلامي الكبير ، وينبغي أن يتعاون المسلمون جميعاً في اسناد التوجهات الوحدوية في المنطقة حتى بأشكالها الأولية .

إن أحداث التأريخ تمضي بظروفها الخاصة ، ومن الوهل أن نعتبر الحرب سبيلاً للوحدة لمجرد أن حرب پروسيا مع فرنسا كان سبباً في الوحدة الألمانية .

إن الطريق الحقيقي للوحدة هو الوعي العميق في أوساط النخبة والجمهور معاً للحكم الشرعي ثم للمصالح المترتبة عليه سياسياً واقتصادياً وعسكرياً .. أو بتعبير آخر لمصلحة نشوء حضارة في عالمنا الاسلامي .

إن بناء الوحدات القومية على أساس من العقيدة الدينية ، يعطيها قوة معنوية دافعة ويمنع اختراقها ويقلل من التأثيرات الداخلية المتمثلة بالمصالح المحلية والنزعات القبلية عليها ، ويجعل واجب حراستها نابعاً من ضمير الأمة ، ولو سلك العرب هذا السبيل الذي بدأوه منذ بداية القرن العشرين ثم تخلوا عنه الى المسالك العلمانية التي قلدت النموذج الغربي ، لكان تيار الوحدة قد بلغ من وجدان الأمة ونخبتها مبلغ النضج ، بل ربما كانت آمالهم قد تحققت خلال عقود ، بدل الصراع الذي خاضته النخبة المثقفة بثقافة الغرب والمتسلحة بايديولوجياته مع جماهير الأمة وضمير الشعب بسبب محاولة غرس نبتةٍ غريبة لم تستطع التأقلم مع الوسط العربي المسلم رغم مرور سبعين عاماً عليها .. ألم يأن الأوان للتخلي عن منازعة الفطرة ومحاربة ضمير الأمة وكوامن طاقاتها الروحية بالتخلص من فكرة العلمانية ومحاولة فرضها ، والتوجه الصادق الى استثارة كوامن القوة في النفس المسلمة ومخاطبتها بلسان مقدساتها وحضارتها وثقافتها ومصطلحاتها وشعاراتها وتراثها . إن الاغماض عن التوجه الصحيح في الخطاب الموجه للأمة لن يؤدي إلا الى ضياع الزمن بالصراع المستمر داخل نفس الانسان والبنية الاجتماعية مما لايولد أية نهضة حضارية حقيقية .

فمنذ ١٠ تموز (يوليو) ١٨٨١ م كتب عبد الله النديم مخاطباً العرب: « كفاكم أن أشغالكم وأمتعتكم يقدمها اليكم الغربي وينزف بها ثروة بلادكم

وأنتم لاتشعرون » [1] ولازال خطابه صالحاً لمواجهة واقعنا رغم مرور أكثر من قرن على كتابته .

الوحدة الإسلامية ضرورة يفرضها الواقع :

١ ـ أهمية ظهور كتلة عالمية قوية قادرة على حماية مصالح المنطقة أمام التكتلات العالمية الأخرى .

٢ ـ الاتجاه نحو الوحدة مساير للاتجاهات العالمية المعاصرة نحو التمركز سياسياً واقتصادياً ومواجهة الآخرين بالتضامن والتخطيط الشامل والأبعاد الواسعة جغرافياً وسياسياً واقتصادياً ...

إن مساحة من الأرض واسعة وعدداً من السكان كبيراً وانتاجاً واسعاً يكفل تحقيق التأثير الأكبر في تشكيلة العالم المعاصر .

إن مايحدث في دول السوق الأوربية المشتركة من تنسيق نحو « الوحدة الأوربية » مؤشر الى نوع العلاقات التي يمكن أن تسود عالم القرن الحادي والعشرين .

٣ ـ مكث العالم الاسلامي موحد القيادة تحت حكم الراشدين والأمويين ثم حدث أول انشقاق في خلافة أبي جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين (١٣٦ ـ ١٥٨هـ) حيث تمكن عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) من تأسيس الدولة الأموية في الأندلس لكنه لم يتلقب بلقب « الخليفة » وبقيت أرجاء العالم الاسلامي الفسيحة الأخرى تحت قيادة موحدة هي الخلافة العباسية حتى القرن الثالث الهجري حيث ظهرت الدويلات الاسلامية التي تمتعت باستقلال ذاتي مع الاعتراف بالسلطة الشرعية ببغداد ومحاولة كسب شرعيتها بالحصول على التقليد والخلع من العاصمة . وظلت علاقتها

---

[1] النديم : التنكيت والتبكيت بواسطة (تحليل مضمون الفكر العربي ص٥٤)

الاتحادية بالخلافة فهي ترسل الأموال وتساعد بالرجال للأغراض العسكرية .

وكانت الضغوط الخارجية على العالم الاسلامي ، وخاصة من قبل الصليبيين من ناحية الغرب سبباً في توحد الشام ومصر تحت قيادة الأيوبيين .. ولكن جهود الوحدة انهارت على اثر الاجتياح المغولي لبلاد ماوراء النهر وإيران والعراق فقامت الدول المغولية في القسم الشرقي من العالم الاسلامي وسيطر المماليك على مصر وانتهى دور الجميع عندما أعاد السلطان سليم الملقب بياووز توحيد العالم الاسلامي تحت راية الدولة العثمانية عدا إيران سنة ١٥٦١ م عندما تغلب على المماليك .

واستمرت وحدة العالم الاسلامي بعد ذلك أربعة قرون حتى الحرب العالمية الثانية عندما تمَّ تقسيمه الى الدول الوطنية القائمة حالياً ...

المزايا الاقتصادية :

الصناعة :

إن الانتاج الواسع « Mass Production » وفق التكنولوجيا المتقدمة لم يعد ممكناً ضمن مساحات الدول الوطنية الصغيرة ، وأعداد سكانها المحدودة ، ومن هنا ظهرت اتجاهات التوحيد والتنسيق في أوربا لتجميع القوى الاقتصادية المادية والبشرية في عملية الانتاج الهائلة ، وللتمكن من تسويق المنتجات في نطاق واسع .

كما أن تطور قوى الانتاج في العالم الاسلامي يحتاج الى قوة سياسية وعسكرية تدعمه ، لأن القوى الخارجية لن تسمح بتجاوز قدر من التنمية الاقتصادية لايتعارض مع مصالحها القوية اقتصادياً وسياسياً والمتمثلة بإبقاء المنطقة زراعية ومصدرة للمواد الأولية ومستهلكة للمنتجات الصناعية الأجنبية . إن هذا التدخل الخارجي يفسر حالات الاجهاض التي أصيبت بها الصناعة الثقيلة والمتوسطة في دول عديدة من العالم الاسلامي ... إن ثمة خطوط حمراء تحد من التنمية الاقتصادية في العالم الاسلامي ، ولن تتمكن

الدول الوطنية الصغيرة من العصيان والتمرد إلا اذا تقوَّت ببعضها وكوَّنت كياناً واسعاً يحظى بالهيبة الدولية الكافية .

وهكذا فإن الاتجاه الوحدوي بين دول العالم الاسلامي هو الطريق الى بناء الاقتصاد بالمستوى العالمي ، ولكن لابد من الاعتراف بأن معظم دول العالم الاسلامي لم تبلغ التنمية الاقتصادية فيها حتى الحدود المسموح بها من قبل القوى العالمية المهيمنة مما يدفع بالضرورة الى محاولة النهوض باقتصادياتها المحلية ، ومساعدتها من قبل الدول الأكثر تقدماً ـ نسبياً ـ سواء بالفنيين أو برؤوس الأموال أو بفتح الأسواق أمام صناعاتها ومنتوجاتها الزراعية ..

وقد ظهرت عدة مؤسسات ومنظمات تعمل على صعيد العالم الاسلامي وبعضها على صعيد العالم العربي ، وهو اتجاه إيجابي يشير الى الوعي بترابط المنطقة وبضرورة التكافل للوصول الى التنمية الاقتصادية الصحيحة .

معوقات الوحدة :

إن أبرز المعوقات تتمثل في التوجهات الوطنية والاقليمية ، حيث تتركز مصالح فئوية معينة ، وتبذل الجهود لتجميد الأوضاع القائمة وتكريس التجزئة وتتنوع المصالح من سياسية واقتصادية ، فمن الواضح أن التقسيم الذي حددته معاهدة سايكس بيكو يحظى بتأييد من قوى محلية وعالمية عديدة .

إن مظاهر التنسيق بين الدول العربية ، وبينها وبين الدول الاسلامية الأخرى تجعل الاتحاد الكونفيدرالي مرشحاً مقبولاً خلال العقود القريبة توافق عليه القوى المحلية والاقليمية الغنية والفقيرة ...

واذا ثبت نجاح التنسيق الاقتصادي والسياسي فإنه سيقوي التوجهات الوحدوية إذ ستتبدد المخاوف التي تشكل عقبات على الطريق عندما يتضح

أن التضحيات ليست كبيرة ، وأن مغانم الوحدة أعظم من مغارمها .

إن الوعي الاسلامي لدى النخبة فضلاً عن الجمهور لم يبلغ المستوى الذي يقود المنطقة الى وحدة المواقف على المستويين العربي والاسلامي ..

ولو تأملنا في تأريخ صدر الاسلام لرأينا التباين الاقتصادي بين الأقاليم واضحاً ، فليست اليمامة مثل سواها فهي اقليم زراعي غني ، وكذلك العراق ومصر فهما أغنى بكثير من الشام . ولم تحل الدولة الواحدة بين الأقاليم وغناها ، إذ أن الزكاة لاتنقل من اقليم إلا اذا فاضت عن حاجة فقرائه . وقد بقيت الأقاليم الغنية على غناها رغم ماتفيضه من فضول الأموال على عاصمة الدولة وخاصة من الأراضي الخراجية . وفي العصر الحديث تتجه أوربا الى الوحدة رغم التباين الاقتصادي الواضح بين دولها حيث الغنى الظاهر في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ، والفقر في إيطاليا واسبانيا . .

ولاشك أن القوى العالمية تبذل كل مافي وسعها لعرقلة التوجهات الوحدوية حذراً من أخطارها السياسية والاقتصادية على المصالح الأجنبية ، ولكن عندما يبلغ الوعي المستوى المناسب للوحدة فإن القوى الخارجية لن تتمكن من وقف التطور السياسي والاجتماعي كما أثبتت أحداث كثيرة في النصف الثاني من القرن العشرين ..

دعائم وحدة الأمة الاسلامية :

وحدة الدين :

إن الاسلام هو الدين الذي تعتنقه جماهير الأمة الاسلامية الغفيرة ، ونظراً لكون الاسلام يتسم بالشمول ، فإنه يولد تجانساً روحياً وثقافياً وسلوكياً وتشريعياً .. وهكذا تتقارب الشعوب الاسلامية في كثير من جوانب حضارتها ، ويشعر الجميع بالرابطة الدينية التي تجمعهم . رغم ماأحدثه الغزو الفكري من تدمير في البنية الاجتماعية والثقافية . .

وحدة التأريخ

قد ينكر البعض أن يكون للمسلمين في العصر الحاضر تأريخ مشترك بل وينكر أن يكون للعرب تأريخ مشترك زاعماً أن لكل دولة عربية تاريخها المستقل ، وهذا الزعم يتسم بالتغرير السياسي والخداع الثقافي ومجافاة الواقع ، ويكفي أن نلاحظ تفاعل جماهير العرب والمسلمين مع القضية الفلسطينية لنتمكن من معرفة كوامن الشعور بالتأريخ المشترك ، حتى أن قادة الجهاد الأفغاني أعلنوا أنهم يتمنون الشهادة على أرض القدس مما يؤكد وحدة الآلام والآمال .. وبعيداً في أعماق ذكريات التأريخ يقف المسلمون أمام جهود صلاح الدين الأيوبي ونور الدين محمود موقفاً موحداً يتسم بالعرفان ... ويقوي الشعور بوحدة الموقف التأريخي بالنسبة لعصر السيرة والراشدين حيث يتسم بالاجلال .

أثر اللغة العربية :

إن اللغة العربية هي وعاء الثقافة الاسلامية ، ووحدة اللغة من أهم العوامل التي تحدد سمات المجتمع بعد الدين ، واللغة العربية تنتشر بقدر محدود بين الشعوب الاسلامية لذلك فإن ثمة مهمات واسعة أمام المؤسسات الثقافية العربية وعلى رأسها الجامعات للقيام بدورات مستمرة لتعليم العربية على نطاق واسع . إن الجهود الحالية ضئيلة جداً ولكنها تستحق الشكر والتشجيع والرعاية . إن جولة ناجحة في عالم يتمتع بقدرة هائلة على الاتصال يمكن أن تعيد للعربية مكانتها في العالم الاسلامي كما كانت في القرون الأولى التي أعقبت الفتوحات الاسلامية عندما كانت لغة الأدب والسياسة والحياة في سائر ديار الاسلام .

إن انتشار اللغة العربية بين الشعوب الاسلامية محدود ، فبعضها اختار اللغة المحلية لغة رسمية ، وبعضها فرض عليها الاستعمار لغته في فترة الهيمنة

الاستعمارية ، ولكن الصحوة الاسلامية المعاصرة ستعزز مكانة اللغة العربية ... ولابد أن نلاحظ أن الولايات الأوربية المتحدة لن تكون دات لغة واحدة ، مما يوضح عدم خطورة تعدد اللغات على الوحدة الاسلامية ..

أثر الجغرافية :

لاتوجد حواجز طبيعية حادة تفصل أجزاء العالم الاسلامي عن بعضه ، كما لاتوجد كيانات سياسية معادية تقطع الاتصال الطبيعي بين الدول الاسلامية . وتدل دراسة الثروة الطبيعية والبشرية على التكامل في مختلف مجالات الحياة ، وتساعد جغرافيته على الاتصال بالعالم الخارجي براً وبحراً

أثر المصالح السياسية والاقتصادية :

تتكامل المواد الخام اللازمة للصناعات في العالم الاسلامي ، فتتوافر الطاقة في دول الخليج العربي كما تتوافر الطاقة البشرية في مصر وباكستان وأندونيسيا ونيجيريا ، وتوجد المياه الوافرة في منطقة الهلال الخصيب ومصر والسودان والباكستان .. كما تتوافر مساحات الأرض الشاسعة الصالحة للزراعة في أحواض الأنهار القديمة في تلك البلاد حيث قامت أول الحضارات الزراعية في العالم ..

ەەەەەەەەەە

إن اتحاداً يضم ملياراً من المسلمين هم خمس قوى سكان الأرض ، ويحتل مساحة تقرب من ربع مساحة المعمورة ، ويضم في باطن أرضه أهمّ مصادر الطاقة ، ويتمتع بأعماق استراتيجية هائلة ، ويطل على ثلاثة محيطات (الهادي ، الأطلسي ، الهندي) لابد أن يكون له ثقل سياسي كبير اذا انتظمت قواه وطاقاته ودرج على سلم الحضارة ..

ولكن وحدة العرب وكذلك وحدة المسلمين ليست بذاتها بلسماً

لجراحات الأمة ولا حلاً سحرياً لمشكلاتها الاجتماعية والاقتصادية ، بل هي الثمرة الكبيرة للعودة الى الاسلام واستيعاب مضامينه الحضارية وإعادة صياغة الشخصية الاسلامية وفق روحه وتعاليمه .

إن حزمة من العيدان المنخورة لايمكن أن تستعصي على الكسر ، لكن حزمة من العصي السليمة يصعب كسرها أو يستحيل .

إن بناء الفرد المسلم والعائلة المسلمة ومجتمع المدينة المسلم ومجتمع القطر المسلم هو النواة السليمة لاعادة الوحدة الاسلامية ، وهذه الوحدة تحقق القوة الاقتصادية والسياسية لعالم الاسلام في القرن المقبل والذي ستزداد فيه تكتلات الأمم قوة ورسوخاً .

إن حل المشاكل المحلية لايتوقف على تحقيق الوحدة ، بل لابد من مباشرة البناء الحضاري على المستويات الاقليمية .. بل والسعي لحل المشاكل السياسية وفي مقدمتها القضية المركزية : فلسطين . وذلك بدعم الحركة الجهادية المعاصرة عربياً واسلامياً ودولياً ، وعلى الصعيدين الشعبي والرسمي .

إن التعامل مع الواقع لايعني القبول به ، ولكن ليس من المنطق السليم والسياسة الحكيمة رفض الواقع برمته ، كما أن ثمة جوانب إيجابية في مجتمعاتنا القائمة وأخرى سلبية ، فلا ينبغي خلط الأوراق ، بل لابد من روحية اجتماعية تعالج الواقع وتتفاعل معه بدل العزلة عنه والانغلاق على الذات والعيش في الخيال والأحلام . . .

إن التنمية الاجتماعية والاقتصادية هي السبيل لدعم الواقع الاسلامي والقضاء على الظواهر المرضية فيه ، لكن أية تنمية لن تحقق أغراضها دون إحياء الروح الاسلامية واليقظة الدينية .. أي انبثاق الوعي الاسلامي من جديد بصورة شاملة تستهدف تجديد الروح وانطلاق الفكر وازدياد الفعل الحضاري باطلاق كوامن الطاقات ورصيد التأريخ الطويل لاحداث التغيير

المطلوب في الواقع ...

إن تقوية المصالح بين الأقطار الاسلامية بربطها بشبكة مواصلات متقدمة (طيران ، سكك حديد ، مواصلات برية) ، والقيام بمشروعات اقتصادية مشتركة ، وإتاحة التنقل أمام الطاقة البشرية مع تبادل العمالة والخبرة الفنية ، وإتاحة تكافؤ الفرص في الكسب والقضاء والتعليم والنظرة الاجتماعية كلها خطوات على الطريق الصحيح . بل إن تحقيق وحدة أية قومية اسلامية هي خطوة على الطريق اذا لم تقم على أسس أيديولوجية مخالفة للاسلام كالعنصرية والتمييز بكل أنواعه أو العلمانية أو التوجهات المادية الأخرى .

الفصل الرابع

قيم الحياة العلمية والتقنية

إن النظرة الإسلامية المتفائلة نحو الحياة الدنيا وزينتها وطيباتها ، والتي غرسها القرآن في نفوس المسلمين (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون)[1] أثمرت حضارة مادية رائعة في العصور الاسلامية الذهبية ، شملت الفكر والعلوم والزراعة والصناعة .. فالمسلم في عصور الازدهار لم ينس نصيبه من الدنيا ، ولم يشعر بالكبت تجاه العمران ، فعقيدته لاتأمره بالتبتل والحرمان ولاتنأى به عن استثمار الطاقات المتنوعة لصالحه (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك)[2] فالمطلوب أن يكون الاستثمار والعمران في نطاق الاحسان دون الظلم والانحراف عن الفطرة وتسخير القوى نحو الشر والدمار والطغيان على العباد ...

والقرآن يربي أتباعه على الاتقان في كل شيء ، والاتقان يقابل فن الصناعة (التكنولوجيا) .. والله الذي له المثل الأعلى خلق الانسان في أحسن تقويم

---

[1] الأعراف ٣٢ .

[2] القصص ٧٧ .

معتدل الخلق متناسب الأعضاء متسقاً مع البيئة التي حوله قادراً على العيش فيها واستغلالها (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) [1] (خلق السموات والأرض بالحق وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير) [2] (ياأيها الانسان ماغرّك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ماشاء ركّبك) [3] ... وقدّمت السنة معالم كثيرة تدل على أهمية الاتقان « إن الله كتب الاحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح » . [4] والاحسان مرتبة عليا فوق الاسلام والايمان ، وفيها تتفجر الطاقات الانسانية وتنفتح على عالم الغيب بتركيز عال من العبادة والرقابة واليقين « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . [5]

ومن العوامل التي عجلت بتقدم المدنية الاسلامية توجيه القرآن أتباعه نحو الطبيعة وعلومها ، ونهيه عن التفكر في ذات الله وعن الجدل العقيم وعن استخدام الحواس في أمور الغيب التي لاتتم معرفتها إلا بالوحي الالهي .. وهكذا اتجه علماء المسلمين في علم الفلك نحو مظاهر الكون وعلاقاتها وأسبابها ومسبباتها ، فربطوا حركة المد والجزر بحركة القمر ، وطبقوا حساب المثلثات على الأرصاد الفلكية ، وقاسوا أجرام الشمس والقمر والنجوم بطرق هندسية حسابية قريبة من الحقيقة ، وقاسوا أبعادها عن الأرض

---

١ التين ٤ .

٢ التغابن ٣ .

٣ الانفطار ٦ ، ٧ ، ٨ .

٤ أخرجه مسلم : الصحيح ٣ : ١٥٤٨ .

٥ أخرجه البخاري : الصحيح ١ : ١٨ .

، وتأسس على أيديهم علم المثلثات الكروية في القرن الرابع الهجري مما أدى الى تسهيل حساب المسافات بين الأمكنة على الأرض ، كما قاسوا محيط الأرض بأمر الخليفة المأمون بطريقة مبتكرة فبلغ (٤١٢٤٨ كم) وعرف طوله الآن على الحقيقة (٤٠٠٧٠ كم) ، وتمكن البتّاني (القرن الرابع) من حساب السنة بمقدار ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات و٤٦ دقيقة و٢٤ ثانية ، والفرق بين تقديره والتقدير الحالي دقيقتان واثنان وعشرون ثانية . واعتمد المسلمون على الرصد الفلكي المستمر من مراصدهم الممتدة من مراغة وسمرقند الى اشبيلية .. وطوروا آلات الرصد من الاسطرلابات والمناظير المتنوعة ، وعرفوا أن الأرض تدور حول الشمس منذ القرن الثامن الهجري على يد ابن الشاطر الدمشقي ، ووضعوا الجداول الرياضية (التقاويم) مستندين على علم الأزياج .. وكان أبرز علماء الفلك المسلمين ينكرون التنجيم (أثر النجوم في حياة الانسان) Astrology كالخوارزمي والفرغاني والبيروني ، وهذا من أثر العقيدة الاسلامية عليهم ففي الحديث : «من قال مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكوكب كافر بي » .[1] وقد مهد علماء الفلك المسلمين للنهضة العلمية الأوربية حيث لازالت مصطلحاتهم تستعمل في علم الفلك المعاصر وأحصتها زيغريد هونكة بـ ١٦٠ مصطلح وكلمة .

واهتم المسلمون بالرياضيات ، وابتكر العالم المسلم أبو الحسن علي الاقليدسي (القرن الرابع الهجري) نظام الكسر العشري في الحساب ، مما كان له أثر كبير في تقدم الحساب وفي اختراع الآلة الحاسبة (الكومبيوتر) في العصر الحديث .. ووضع المسلمون علم الجبر الذي لازال يعرف باسمه

[1] صحيح البخاري ٥ : ٦٢ .

العربي في مختلف لغات العالم Algebra حيث ألَّف محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٢٣٥ هـ) كتابه المشهور (الجبر والمقابلة) في عصر المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) .. ووضع المسلمون اللبنات الأولى للهندسة التحليلية عندما حلوا المعادلات التكعيبية الصعبة، كما برعوا في الهندسة التطبيقية حيث طبقها ابن الهيثم (ت ٤٣٠ هـ) في العديد من المسائل في علم المناظر (البصريات) لتحليل الشعاع وانعطافه وانكساره وانعكاسه على المرايا المستوية والمقعرة والمحدبة والاسطوانية .. وقام المسلمون بتنظيم علم المثلثات وهو يبحث في الزوايا وعلاقتها بالأبعاد ، وأضافوا اليه اكتشاف جيب الزاوية وجيب التمام والظل (المماس) وقاطع التمام Cosecant .

والمسلمون هم الذين أنشأوا علم الكيمياء واكتشفوا بعض أجزائها المهمة كحامض الكبريتيك والنيتريك والكحول ، وقاموا بعمليات التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتكليس ، وهيأوا الأدوات والمختبرات اللازمة لهذه العمليات ، ولازالت كثير من مصطلحاتهم تستعمل في الكيمياء المعاصرة ، وقد بنى المسلمون صناعتهم على اكتشافاتهم العلمية مثل صناعة العقاقير وتنقية المعادن وصناعة الورق والأقمشة والزجاج ودبغ الجلود وصناعة العطور ، واعتبر جابر بن حيان (ت ٢٠٠ هـ) أكبر عالم في مجال التأليف والبحث في هذا العلم .

أما في الطب فالعرب هم أول من استخدم المخدر (المرقد) في الطب والعمليات الجراحية مستخدمين الاسفنجة المخدرة من محلول الأفيون يستنشقها المريض .. كما اكتشف الأطباء المسلمون العديد من الأمراض وشخصوها ، فاكتشف ابن سينا المرض المعروف اليوم بالانكلستوما وهي الدودة التي وصفها بالمستديرة ، واكتشف ابن النفيس (ت ٦٨٦ هـ)الدورة الدموية الصغرى بعد تشريح القلب ، كما ألف في علم التشريح كتاباً ،

وبذلك استقل هذا الفرع من العلوم الطبية .. واهتم أبو القاسم الزهراوي (ت ٤٠٤ هـ) بعلم الجراحة ووصف أكثر من مائتي آلة جراحية مع صورها ، وصار كتابه بعد ترجمته الى اللاتينية يدرس في أوربا خمسة قرون ، واستعمل الزهراوي خيوط الحرير في خياطة العمليات الجراحية لأول مرة ، كما كان الرازي قد استعمل الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات لأول مرة .. وألّف ابن الجزار القيرواني (ت ٣٦٩ هـ) أول كتاب في طب الأطفال ، وقد استمرت عنايتهم بطب الأطفال حتى وصلوا الى تلقيحهم ضد الجدري الذي كان معروفاً في المغرب العربي .

وعلى يد العرب استقل علم الصيدلة ، وألحقوا الصيدلية بالمستشفى ، وأجروا امتحانا للصيادلة منذ القرن الثالث الهجري ، ونموا علم العقاقير بالتأليف في الأدوية المفردة والمركبة ، وظلت كثير من الأسماء العربية للعقاقير تستعمل في اللغات الأخرى حتى الوقت الحاضر ، وظلت مؤلفاتهم في الصيدلة يستفاد منها في أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر .

ومن المهم الإحاطة بمدى انتشار الأطباء في المجتمع الإسلامي ، فقد جرى امتحان لأطباء بغداد في خلافة المقتدر عام ٣١٥هـ فأجيز ثمانمائة ونيف وستين طبيبا غير أطباء دار الخلافة المعروفين ، وهو عدد كبير في ذلك العصر .

وقد أنشئت المستشفيات في الإسلام منذ خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ) بدمشق وكانت متخصصة بالأمراض المعدية لوقاية المجتمع ومساعدة العجزة والمرضى . ثم انتشرت المستتشفيات في أرجاء العالم الإسلامي في العصر العباسي واشتهر منها المستشفى العضدي ببغداد (٣٧١هـ) والمستشفى النوري بدمشق (٥٤٩ هـ) والمستشفى المنصوري بالقاهرة (٦٨٣ هـ) ومستشفى مراكش زمن دولة الموحدين . وكانت هذه المستشفيات منظمة تنظيما يقرب من تنظيم المستشفيات في عصرنا ، في

حين كان أكبر مستشفى بباريس (أوتيل ديو) يبعث وصف توردو الفرنسي له سنة ١٧١٠ م على التقزز والاشمئزاز .

وقد ألحق المسلمون المعاهد الطبية بالمستشفيات مما نجم عنه تقدم الطب السريري (الاكلينيكي) ، وقد ذكر المستشرق الألماني ماكس ماير هوف ٤٣ مؤسسة طبية تعليمية مع المستشفيات المنتشرة من فارس إلى مراكش . إن الاعتراف العالمي بجهود المسلمين في الطب يظهر في الموسوعات العلمية وفي صورتي الرازي وابن سينا المعلقتين في كلية الطب بجامعة باريس ، وفي إطلاق اسم الرازي على قاعة من أفخم قاعات جامعة برنستون الأمريكية .

أما في علوم الطبيعة (الفيزياء) فتظهر جهود ابن الهيثم (ت ٤٣٠ هـ) في تطور علم البصريات وفيزيولوجية الأبصار ، وكان بحثه في العدسات قد مهَّد لظهور العدسة المكبرة للمجهر والتلسكوب ، وجهود البيروني في بيان أن سرعة الضوء أعظم بكثير من سرعة الصوت ، وبحث المسلمون في الصوت وتموجاته في الأثير ، وهو أساس اختراع الاذاعة المسموعة .

كما استنبط علماء العرب طرقاً واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من معرفة الوزن النوعي لعدد من المعادن والأحجار ، وبحثوا في الضغط الجوي وعرفوا بأن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل الى أعلى مما مهَّد السبيل لاختراع البارومتر ومفرغات الهواء ..

واهتموا بعلم الميكانيكا وأسموه « علم الحيل » ، ووصف ابن الجزري خمسين آلة ميكانيكية كالساعات المائية والنافورات مع صورها بالألوان الجميلة ، كما بحثوا في هذا العلم نظرياً مثل موضوعات القوة وأنواعها والحركة وقوانينها ، وتصادم الأجسام وتساقطها ، وطبيعة الزمان والمكان وقوة الجذب والجاذبية الأرضية ، مما يقلب مفاهيمنا عن كثير من النظريات التي كانت تنسب الى علماء الغرب .

واهتم العرب بعلم الظواهر الجوية وأسموه (علم الآثار العلوية) فبحثوا

في حركة المد والجزر وربطها أبو معشر الفلكي (ت ٢٧٢ هـ) بطلوع القمر وغيابه . ورسموا خرائط توضيحية للمد والجزر على الكرة الأرضية منذ القرن الخامس الهجري . ووضع النيريزي (ت ٣١٠هـ) رسالة في آلات لمقياس ارتفاع الغيوم والأبخرة ، وصحح ابراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة (ت ٣٣٥ هـ) آراء أرسطو في تعليل الظواهر الجوية ورفض التعصب الأعمى لآرائه من قبل معاصريه كما رفض التأثر بالخرافات السائدة عند اليونان والتي تأثر بها أرسطو في تعليله ، واعتمد التجربة في ردوده على أرسطو . كما علَّل كمال الدين حسن الفارسي (القرن السابع) ظاهرة قوس قزح تعليلاً صحيحاً .

واهتم العرب بعلم الحيوان والنبات وصنفوا في أنواعها وصفاتها ، ونشأ عندهم علم البيطرة ، وعلم الفلاحة فصنفوا في ذلك كله منذ القرن الثالث الهجري وقد ظهر تأثير دراساتهم على نظام الري المعقد في العصر العباسي والذي ضمَّ مائة ألف قناة للري ، كما ظهر على المستوى الراقي للحدائق والبساتين وخاصة في الأندلس .[1]

وهكذا يتبين أن المجتمع العربي الإسلامي كان بحق أرقى المجتمعات البشرية في القرون الخمسة الأولى للهجرة ، وأن المسلمين أمسكوا بزمام الحضارة العالمية ، وأضافوا إليها مبتكراتهم الجليلة عدة قرون ، وكانوا بحق آباءا للعلوم والتقنية الغربية مهما حاول البعض طمس هذه الحقيقة والزعم بأن النهضة الأوروبية بنيت على تراث اليونان مباشرة دون وساطة

---

١ راجع : د . سيد رضوان علي : العلوم والفنون عند العرب ، ومظهر جلال : حضارة الاسلام وأثرها في الترقي العالمي ، والدوميلي : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ، وقدري حافظ طوقان : العلوم عند العرب ، وعمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب .

العرب وإضافاتهم الكبيرة ، فالدراسات الحديثة الجادة تؤكد أن أوروبا في عصر النهضة اعتمدت على ترجمة المؤلفات العربية ودرستها في جامعاتها عدة قرون ، وطبعت منها بعد اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي عشرات الطبعات في سنين قليلة (طبع كتاب «القانون» لابن سينا خمس عشرة مرة خلال ثلثمائة وست وعشرين سنة (١١٧٤ ـ ١٥٠٠م) وطبع كتاب « الحاوي» في الطب للرازي مرارا وتكرارا حتى القرن الثامن عشر بعد ترجمته إلى اللاتينية سنة ١٢٧٩م في صقلية ، وثمة مؤلفات أساسية عديدة ترجمت في القرن العاشر والحادي عشر وظلت متداولة في الجامعات ولدى العلماء قرونا طويلة) ، ومن هنا قال د. فؤاد سزكين : « كلما أمعن الإنسان في دراسة المصادر الأصلية للنهضة الأوروبية ازداد تصوره أن هذه النهضة المزعومة أشبه ماتكون بالولد الذي نسب إلى غير أبيه الحقيقي » .[1]

.وسوف يكشف المستقبل جوانب جديدة من إضافات المسلمين إلى الحضارة وتأثيرهم في الحضارة الغربية المعاصرة يقول د.فؤاد سزكين : «ولقد توصلت خلال دراستي لتأريخ العلوم أن قضية أخذ اللاتينيين عن العالم الإسلامي أعظم من أن تستطيع تبيانها جماعة كبيرة من العلماء في عشرات السنين » .[2]

ومن ثم فإن ماجرى على الموسوعة البريطانية من تنقيح بعد الطبعة الحادية عشرة [3] بحذف ماله علاقة بتقدم المسلمين في العلوم لن يغير الحقيقة التاريخية التي اعترف بها كبار علماء الغرب ، بل إن بعضهم أدرك سر

---

[1] محاضرات في تاريخ العلوم ٨٦ .

[2] المصدر السابق .

[3] د.سيد رضوان علي : العلوم والفنون عند العرب ٦٥ ـ ٦٦ .

النهضة الحضارية لدى المسلمين وارتباطها بالعقيدة الإسلامية .. « إن وحدة العقيدة الدينية في العالم الإسلامي أقوى تأثيرا منها في العالم المسيحي .. وكان الأمر بنشر القرآن بلغته الأصلية العربية وحدها ، مما جعل لها وللتعاليم القرآنية سيادة مطلقة في العالم الإسلامي كله ، فكان ذلك في مقدمة العوامل التي أدت إلى ابتداع كثير من الفنون وازدهارها » . [1]

ومن الواضح أن التوجيه القرآني له أثر عميق في اهتمام المسلمين بالكون المادي ودراسته ، وفي استخدام المنهج التجريبي ، وفي الأمانة العلمية التي تحكم دراستهم لأمور الدين والدنيا ، فلامكان في الاسلام للمجازفة والتقول دون علم (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا). [2]

إن المطلوب هو الارتفاع بمستوى الوعي العام للأمة ، بأن تقوم النخبة بالارتفاع بمستواها الديني والعلمي والتقني بدافع من العقيدة الدينية، ثم تحويل ذلك إلى تيار متدفق لغرس الوعي العام وسط الجماهير ...

إن إطلاق طاقات الأمة الكامنة ينبغي أن يسبقه إطلاق طاقات النخبة على صعيد الأفراد والجماعات .. إن معرفة طاقات الإنسان الروحية والعقلية والبيولوجية لاتكفي بل ينبغي أن تتم الإفادة من هذه الطاقات بنسب عالية وإن العقيدة الدينية هي أعظم مايكفل هذا التفجير .. إن حادثة سارية الجبل [3] التي وقعت لعمر بن الخطاب (رض) هي واحدة من مئات الأحداث التي تمثل تفجر الطاقة النفسية عند العرب بعد أن لامست العقيدة الدينية شغاف قلوبهم ، وإن أحداث التاريخ الإسلامي في عصر السيرة والراشدين مليء

---

[1] أرنست كونل : الفن الإسلامي ، ترجمة د.أحمد موسى ص ١١ .

[2] الاسراء ٣٦ .

[3] صححه ابن تيمية ، وقال ابن حجر إسناد حسن «السخاوي المقاصد الحسنة ٤٧٤ ، وابن تيمية مجموع الفتاوى ١١ : ٢٧٨ » .

بالأمثلة على التخاطر على بعد ، والبركة في الطعام والماء وخرق العادات مما دخل تحت أبواب المعجزات والكرامات ، وإن إعادة التجربة الروحية كفيل بزيادة الوعي الإنساني وتفجير الطاقات الخفية للإنسان ..

وإن محاولة المسلمين الطفرة الحضارية للحاق بالسياق العالمي لاتتم إلا بطاقة روحية هائلة تعوض فترة الركود الحضاري التي امتدت قرونا في تاريخهم الأخير ...

ولعل الدراسات السيكولوجية المعاصرة قد نبهت المتعلمين المسلمين إلى خطأ استحيائهم من الاعتراف بالكرامات والمعجزات ، فالعلم لم يعد ينكر «خرق العادة» و «التخاطر على بعد» .[1] بعد أن تجاوز مرحلة الصرامة العقلية والجمود المادي .

وعندما استثيرت طاقات الأمة الروحية في العصر الحديث ولو بصورة محدودة ولدت آثارا عالية في تجارب الجهاد والصمود في فلسطين وأفغانستان مما يعطي مؤشرا واضحا على الطريقة الصحيحة لانبعاث أمة الإسلام على أساس يجمع بين الروح والعقل .

إن تقويم تجربة الغرب الحضارية منذ عصر النهضة حتى العصر الحديث ، والتي اعتمدت على العقل المجرد للإنسان - لأسباب تاريخية ولدت التناقض مع الدين - تفيد عظم الخسارة التي حلت بالإنسان عندما «أوصد عالم الروح منذ قام عهد العقل على هذا الشكل فخسرت الحضارة الغربية والإنسان الغربي حضارات روحية عظيمة» كما يقول المفكر الفرنسي أندريه روسو .[2]

---

١ راجع دراستي كولن ولسن : خفايا الحياة والقوى الخفية في الإنسان .

٢ الثقافة الإنسانية ٢١٠ - ٢١١ .

الفصل الخامس

قيم الحياة الاجتماعية

إن من مقاصد الشريعة حفظ النوع الإنساني واستمراره في الوجود ، فقد شرع الزواج باعتباره وسيلة لزيادة النوع ، وحصنت الأسرة بتشريعات كثيرة باعتبارها محضن الأجيال الصاعدة ، وحرم إتلاف النفس بالقتل أو الانتحار (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا)[1] وهذه الآية جعلت تحقيق الأمن الفردي أساسا لتحقيق الأمن الجماعي ، لارتباط الأمنين ، فجعلت قتل الواحد كقتل المجتمع ، لما يشيع في المجتمع من اضطراب وقلق عند العدوان على « الواحد» لذلك على المجموع أن يتحركوا لمنع العدوان على «الواحد» وإحياء نفسه وتحقيق الأمن للمجموع . وفي الحديث « ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا »[2] ، ولاشك أن عقوبة الخلود في النار منعت الكثير من المسلمين عبر التأريخ من الانتحار تحت ضغوط نفسية واجتماعية واقتصادية .. فالصمود والسعي لتحسين الحال هو السبيل الوحيد المفتوح أمام المسلم . وعندما نقرأ تاريخنا لانكاد نعثر

---

[1] المائدة ٣٢ .

[2] صحيح مسلم ١ : ١٠٤ .

على أحد من المسلمين ختم حياته بالانتحار إلا نادرا ، وما زالت نسبة المنتحرين في مجتمعاتنا ضئيلة جدا بالقياس إلى المجتمعات الغربية .. ولاشك أن التوجيه الديني وراء هذا التباين الواضح .

إن مما يدعم صمود المسلم أمام الضغوط النفسية أن صلته بالله تعالى لاتنقطع وأن رجاءه في رحمة ربه عظيم بسبب فتح باب التوبة مهما بلغت معاصي الإنسان ، وهي توبة بينه وبين ربه لاتحتاج لاعتراف أمام وسيط ، ولا إلى كشف مستور للعالمين (لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) [١] (إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) [٢] . ويمتد رجاء المسلم إلى الآخرة ، وهو يحس بتقصيره ، وأن عمله لايدخله الجنة ، فهو يعتقد بشفاعة النبي والملائكة والنبيين والصالحين والقرآن له عند ربه مادام موحدا .. فهذا التلاحم والاتصال بينه وبين الأجيال يعطيه طاقة هائلة على احتمال مصاعب الحياة . ثم إن ماأمر الله به من صلة الأرحام القريبة ، والتواصل بين المؤمنين ، والتناصح بينهم ، وزيارة المريض ، وتفقد الجار ، والتكافل الاجتماعي بين الناس لايدع المسلم وحيدا يائسا ، وهو من أكثر أسباب شيوع الانتحار في العالم . إن الإحساس بالوحدة والوحشة لامكان لها بين المسلمين إذا فقهوا تعاليم دينهم وطبقوها في واقعهم . وقد أكدت الشريعة على قيم كثيرة تحفظ المجتمع الإسلامي من أبرزها التزام المسلم بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث شبه الرسول صلى الله عليه وسلم المجتمع الإسلامي بالسفينة في البحر فينبغي على سائر ركابها أن

---

١ الزمر٥٣ .

٢ يوسف٨٧ .

يمنعوا أية محاولة لخرقها لئلا يغرقوا جميعا .[1]

وقد مضت هذه الأمة المسلمة تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبر القرون وخاصة في صدر الإسلام ثم صار الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر أقساما شتى فمنهم طائفة مضت على سنن الأولين وطرائق الصحابة والتابعين من استحضار النية وإخلاص النصيحة والصبر على المدعوين وخفض الجناح لهم وتليين القول معهم والتزام الحسنى والرفق في بيان محاسن الإسلام ومساويء غيره ، ومنهم طائفة ملتزمون بالإسلام قولا وعملا ، ولكن فيهم شدة وحدة تفوت عليهم بلوغ الهدف من قلوب العباد وتصدهم عنهم فهم أقل درجة من الطائفة الأولى ، ومنهم طائفة لاعلم لهم بل يأمرون وينهون دون معرفة بقواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رياء وسمعة وارتفاعا على الناس وإظهارا للصلاح وطلبا للمحمدة وليست لهم في ذلك نية فتراهم يأمرون الضعفاء ويسكتون عن الأقوياء ، ولاشك أن الطائفة الاولى هي الموصوفة بالخيرية (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وهي خيرية الإيمان والاستقامة عليه والدعوة إليه ، لذلك لم تفض في تاريخ الإسلام إلى ظهور الاستعلاء العنصري أو احتقار الأمم الأخرى ، بل إن الاتجاه الدعوي إنما يمثل حب الخير للآخرين وسلوك سبيل النجاة لهم في الدنيا والآخرة ، خلافا لما أحدثته النازية والفاشية من روح الاستعلاء الفارغة التي أدت إلى الحروب الطاحنة التي أفنت ملايين البشرفي النصف الأول من القرن العشرين .

وقد وضع ابن تيمية - رحمه الله - قاعدة هامة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتمثل في مراعاة المصالح والمفاسد من قبل الآمر بالمعروف

---

[1] راجع الحديث في البخاري : صحيح شركة ٦ ، وشهادات ٣٠ ، والترمذي : السنن ، فتن ١٢ .

والناهي عن المنكر ، فإن حصلت مصلحة أعظم من المفسدة وجب الأمر بالمعروف والنهي عليه ، وإن كانت المفاسد أعظم من المصالح لم يجب عليه بل قد يحرم ، أما إذا حصل التساوي والتكافؤ بين المعروف والمنكر لم يؤمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر ، لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح . وأما عند اختلاط المعروف والمنكر فيدعى إلى المعروف دعوة مطلقة ، وينهى عن المنكر نهي مطلق ، هذا من جهة نوع المعروف ونوع المنكر ، أما في الفاعل الواحد والطائفة الواحدة فيؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها ، ويحمد محمودها ويذم مذمومها ، بحيث لايتضمن الأمر بالمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول منكر ، ولايتضمن النهي عن المنكر حصول ماهو أنكر منه أو فوات معروف أكبر منه .[١]

وقد نبغ في تاريخ المسلمين عدد من المجددين على رأس القرون فكانوا يحيون ما مات من السنن ويقاومون ماتجدد من البدع نتيجة التصور الجزئي للإسلام والانحراف عن معالمه بالتعلق ببعض الكتاب والإيغال فيه دون البعض الآخر ولشيوع الجدل وتحكيم العقل في أمور العقيدة والشريعة وإنما الحكم لهما على العقل ، وبسبب الغزو الفكري من العقائد الأخرى ... وقد نجحت حركات التجديد في المحافظة على الإسلام وتوريث الأجيال اللاحقة قيمه ومبادئه وإقناعهم بالذود عنه والالتزام به حتى كانت العصور الحديثة فعصف الغزو الفكري بالأمة ومزقها .. فما أحوجها إلى التجديد وإلى أهل الصلاح والعلم يرشدونها ويوجهونها إلى الصراط المستقيم والوحدة والتضامن ، ولن يتم ذلك إلا بالعودة الصادقة إلى الله تعالى والإخلاص له بالعبادة والطاعة ، وإلا بالعودة إلى الينابيع الأصيلة والاعتراف

---

١ ابن تيمية : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٩ ـ ٢٣ .

منها وهي الكتاب والسنة ، وإن أولى ماينبغي العناية به كتاب الله بقراءته تعبدا وتعلما والاستعانة بكتب التفسير المعتمَدة في فهمه ثم العناية بالسنة المطهرة بالاستعانة بصحيحي البخاري ومسلم وفهمهما من خلال شروحهما مع مراجعة أهل العلم وسؤالهم ، لأن الاتصال بالنصوص دون سؤال أهل العلم قد يخالطه سوء الفهم والانحراف عن الجادة بسبب الوقوف على بعض الآثار دون البعض الآخر مع حاجة بعضها إلى البعض الآخر لاكتمال المعنى أو بيان الناسخ من المنسوخ إلى غير ذلك من الضوابط التي يعرفها العلماء ، وبدون مراجعة أهل العلم الراسخين قد يقع المسلم في مخالفة الأحكام الشرعية وهو لايعلم ، وقد يتبع الباطل وهو يظن نفسه على الحق ، قال عبد الله بن وهب : « لولا مالك والليث هلكت ، كنت أظن كل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم يفعل به » .[1] يعني أن مالكا والليث فقهاه في السنن ، وبينا له الناسخ والمنسوخ ، والراجح من المرجوح ، وفسرا له النصوص بما يكفل له الفهم الصحيح والاتباع السليم ، وهكذا أظهر عبد الله بن وهب أهمية التلقي عن العلماء الراسخين بقوله « لولا مالك والليث لضل الناس » .[2] وبمصاحبة أهل العلم الراسخين يتصل المسلم مباشرة بالكتاب والسنة مع الحرص على العمل والتطبيق إذ لاخير في علم لاينفع ، والانتفاع بالعلم إنما يكون بالعمل به ، وبذلك يتحقق الاتباع الصحيح المبني على العلم والعمل معا ، والوقوف عند حدود النص ومنع العقل من اختراق مجاله يمنع الوقوع في معارضة النصوص . قال عمر (رض) : « اتهموا الرأي على الدين ، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي اجتهادا ، ووالله

---

[1] الذهبي : سير أعلام النبلاء ٨ : ١٣٢ .

[2] المصدر السابق .

ماآلو من الحق ، وذلك يوم أبي جندل » .

وليدع المسلم ربه أن يقيه شر الفتن ويبعده عن الأهواء والخصومات والأيدلوجيات المخالفة لدين الله فقد كان عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - يقول « مافرحت بشيء من الإسلام أشد فرحا بأن قلبي لم يدخله شيء من هذه الأهواء » .

وكان السلف الصالح يحذرون من مجالسة أهل البدع والاستماع اليهم وتوقيرهم واحترامهم وترديد أقوالهم وإذاعتها . وإذا كان التحذير من أهل البدع كذلك فإن التحذير من الكفار ومتابعتهم أشد وأعظم ، فمن أنكر صريحاً من الدين ، وأنكر تحكيم الشريعة أو بعضها ، أو اتخذ ديناً سواها ، أو معتقداً مخالفاً لها ، فهو كافر ، وأمره أشد من المبتدع ، قال الحافظ الذهبي : « ومن كفر ببدعة - وإن جلت - ليس هو مثل الكافر الأصلي ، ولا اليهودي والمجوسي ، أبى الله أن يجعل من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر وصام وصلى وحجَّ وزكَّى وإن ارتكب العظائم وضلَّ وابتدع كمن عاند الرسول وعبد الوثن ونبذ الشرائع وكفر ، ولكن نبرأ الى الله من البدع وأهلها » . [1] فالعجب من مسلمي هذا الزمان يحملون على من خالفهم المخالفة اليسيرة في الأمور الاجتهادية ويعادونه أكثر من معاداتهم لأهل البدع الغليظة بل وأهل الكفر الصراح ، مع أنهم وصفوا بأنهم رحماء بينهم أشداء على الكفار ، قال تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً) . [2]

وكان الصحابة رضي الله عنهم واعين لأهمية وحدة الأمة ، متسامحين في

---

١ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠ : ٢٩ .

٢ الفتح ٢٩ .

الاختلافات التي مصدرها الاجتهاد ، ملتزمين باختيارات الخليفة .. بل بلغ الأمر أنهم التزموا باختياراته في العبادة رغم أن الأدلة الأقوى كانت لاتؤيد اختياره ، وذلك لأن الأخذ باختيار الامام الشرعي من أقوى أسباب الحفاظ على وحدة الأمة . ووحدة الأمة مأمور بها في الكتاب والسنة والاجماع ، قال تعالى : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) [١] ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » . [٢] وقد فقه الصحابة هذه التوجيهات وعملوا بمقتضاها « دخل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه منى في الحج ، فسأل كم صلى أمير المؤمنين ؟ فقالوا أربعاً ، فصلى أربعاً ، فقيل له ألم تحدثنا أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين ؟ فقال : بلى وأنا أحدثكموه الآن ، ولكن عثمان كان إماماً فما أخالفه ، والخلاف شر » . [٣]

إن بناء الحضارات وتكوين الأمم القوية يحتاج الى جهود وتضحيات عظيمة ، وقد وضع الاسلام وحدة الأمة هدفاً له ، وهيأ من التوجيهات والتشريعات مايكفل التعاون بين أبناء الأمة الاسلامية ، مؤكداً على التكافل والتعاون ، قال تعالى : (لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) [٤] ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه » .[٥] وقد كانت سيرة الرسول

---

١ الأنفال ٤٦ .

٢ رواه البخاري : فتح الباري ١ : ٢١٧ حديث رقم ١٢١ ، ومسلم : الصحيح ١ : ٨٢ حديث رقم ٦٥ ، ٦٦ .

٣ رواه البيهقي بإسناد حسن : السنن ٣ : ١٤٣ - ١٤٤ .

٤ النساء ١١٤ .

٥ الألباني : الصحيحة ١٣٣٢ .

صلى الله عليه وسلم وأصحابه مثلاً للبذل والايثار والتعاون على الخير والبر.

وقد بدأ الاسلام بصلة الرحم لبناء الوحدات الاجتماعية الصغيرة على أساس متين من التكافل والتعاطف (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام)[1] ثم يوسع الدائرة الى حفظ وتوثيق علاقات التكافل بين العشائر التي تتعاون في دفع الديات ثم حقوق الجيران على بعضهم ، ثم أبناء القرية الواحدة فيما بينهم ثم الانتقال الى التكافل على صعيد المجتمع الاسلامي العام والذي ترعاه الدولة . إن الكرم والايثار من خصال المسلم حيث « لايجتمع شح وإيمان في قلب رجل مسلم » كما في الحديث .[2]

وقد كثرت توجيهات القرآن والسنة في الحث على الصدقة وصلة الأرحام وإكرام الضيف وتفقد أحوال الجيران ما كان له أعظم الأثر في تماسك المجتمع الاسلامي خلال مراحل التأريخ وخاصة القرون الأولى ، حيث انخلع الناس عن أموالهم للصالح العام تحت شعار « الصدقة برهان »[3] يعني أنها دليل قاطع على تذوق حلاوة الايمان . وقد لاتروق فكرة الايثار لفيلسوف غربي مثل برتراند رسل حيث يقول : « إن كل انسان له حق حيز معين في هذه الحياة ، وينبغي ألا يشعره أحد بأنه شرير إذا قام يطالب بما هو حق له . والناس حين يعلمون تضحية النفس يعلمونها فيما يبدو لا على أنهم سيعملون بها تماماً ، ولكن على رجاء أنهم سيأخذون منها بالقدر القريب من الصواب ، لكن الواقع أن الناس إما أن يفشلوا في تعلم هذا الدرس ، وإما أن يشعروا أنهم آثمون حين يطالبون بالعدل المجرد ، وإما أن يصلوا في

---

١ النساء ١ .

٢ مسند أحمد ٢ : ٢٥٦ .

٣ مسلم : الصحيح ١ : ٢٠٣ .

تضحية النفس الى حد غير معقول ، وعندئذ لاتخلو نفوسهم من حقد على الذين آثروهم على أنفسهم ، وأكبر الظن أنهم يسمحون لحب النفس أن يرتد اليهم متنكراً في صورة المطالبة بالشكر . وعلى كل حال فتضحية النفس لايمكن أن تكون مذهباً صحيحاً لأنها غير قابلة للتعميم ، ومن المكروه البغيض أن تعلم الباطل كوسيلة الى الفضيلة لأنه اذا انكشف الباطل تلاشت الفضيلة » . [1] إن ماقرره رسل ينحصر في نطاق الحضارة المادية ، أما الايثار في ظل الاسلام فإنه برهان على صدق العقيدة وثوابه عظيم في الآخرة ومخلد في كتاب الله في وصف الصحابة من الأنصار (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .[2]

إن الفرق بين قيم ومفاهيم حضارة روحية تعتبر الحياة الدنيا مجرد جسر الى الآخرة حيث الخلود وحيث تظهر ثمرات العمل الصالح ، وبين حضارة مادية محدودة في عالم طبيعي ، حياة الانسان فيه قصيرة ، إن الحضارة الروحية تشجع على العطاء والتضحية والتواصل بين البشر دون حد .

---

[1] برتراند رسل في التربية ص ١٠٦ ، ترجمة سمير عبدة - بيروت ١٩٦٤ م .

[2] الحشر ٩ .

الفصل السادس

قيم الحياة الاقتصادية

لاشك أن الازدهار الاقتصادي في عصور الإسلام الذهبية تكمن خلفه قيم الإسلام ومفاهيمه الاقتصادية ، فهو خلافا لمعظم العقائد الدينية الأُخرى لايأمر أتباعه بالتخلي عن استعمار الأرض واستثمار ثرواتهاالطبيعية والضرب في الأرض ابتغاء الرزق عن طريق التجارة ، بل إن الإسلام اعتبر الفاعلية الاقتصادية ضربا من العبادة ، يؤجر صاحبها إذا استحضر النية في نشاطه الاقتصادي .. فالمسلم يعمر الأرض ويزيد الثروة ويغرس الثمرة ويدير الآلة ويستخرج ركاز الأرض ويتاجر ، وهو بكل ذلك يتطلع إلى ماعند الله من أجر الآخرة .

ومن أجل استثارة حوافز المسلم الفطرية ، حمى الإسلام الملكية الفردية وجعل من حق صاحب الثروة أن يبقيها في أسرته من بعده ، فلا يبددها ولايتوقف عن انمائها . واستمر المال يتداول بين الناس ، دون أن يقتصر تداوله على الأغنياء ، فالأمر بالتكافل والتصدق والعطاء مع تحريم الكنز وتحريم الربا والاحتكار ووسائل الثراء الفاحش الأُخرى جعلت رؤوس الأموال تتجه نحو المشاريع التي تخدم الصالح العام ، بل قد أوقف الأغنياء أموالاً عظيمة خلال التأريخ الإسلامي لخدمة المجتمع الإسلامي ولازالوا يفعلون ذلك حتى الوقت الحاضر ..

وكانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر تحفز روح المغامرة العلمية والتجارية وتدفع للبذل والتضحية لبناء الأمة وكيانها الحضاري ، ولم تكن مدعاة للكسل والتثبيط والإحباط كما حدث بعد أن أسيء فهمها في العصور المتأخرة . فقد خططت الأمة الإسلامية في تأريخها الزاهر لاقتصادها ، فكانت أول أمة عرفت التخطيط الاقتصادي نظريا وعمليا.

ولو درسنا موارد الدولة الإسلامية في العصر الذهبي لأدركنا مدى الازدهار التجاري والزراعي والصناعي ، فقد شاد المسلمون أعظم حضارات العالم القديم منظمين الري بطريقة رائعة تدل على تقدم الهندسة والتقنية كمايشهد نظام الري في منطقة السواد في العصر العباسي ، ونظام توريع المياه في حدائق غرناطة ، وفي بغداد مدينة المنصورة المدورة .

أما العمران وخطط المدن فقد كشفت الدراسات الحديثة عن مدى الإبداع والتقدم إذا قورنت بمدن أوروبا في العصور الوسطى ، ويكفي أن عاصمة الخلافة العباسية (بغداد) كانت شوارعها مرصوفة بالآجر ، مضاءة بقناديل الزيت ، تصل المياه إلى دورها بقنوات من الآجر تحت الأرض ، في وقت كانت فيه شوارع باريس موحلة مظلمة .

وكانت التجارة الإسلامية تنشط مع مراكز التجارة في كانتون شرق الصين ، وتتم مبادلاتها مع تجارة من السويد غربا مما كشف عنه علم الآثار في العقود الأخيرة وتمثل في وجود النقود الإسلامية تحت الأرض السويدية ..

وقد مهدت الطرق أمام التجارة الخارجية ، وكان تشريع الحج يقتضي هذا التمهيد لتيسير التنقل أمام قوافل الحجاج ، ويحكي التأريخ أن زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد أجرت المياه من العيون إلى مكة لسقي أهلها والحجيج ، وعمرت السقايات ودور السبيل حول المسجد الحرام ومنى وعرفات ، وأوقفت على ذلك ضياعا بلغت قيمة غلتها السنوية ٣٠٠٠٠ دينار

وكانت قلوب النخبة المسلمة يقظة ، تقدر الآخرة حق قدرها ، وتضع الدنيا موضعها ، فكانوا يأكلون طيبا وينفقون قصدا ويقدمون فضلا ، لم يحبوا الدنيا ولم تدخل قلوبهم ، لكنهم أدركوا أيضا أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن المال قوام الحياة الدنيا ، فلم يضيعوه ، بل جعلوه مطيتهم إلى الآخرة ، وأنفقوه في عمران عالم الإسلام وتقوية دولته وإشادة صرح حضارته ، ومنعوا تبديده وإتلافه أو صرفه على مالايعود على المجتمع بالخير والتقدم .. لقد أسرف الخليفة الناصر في الأندلس في البناء حتى أنه اتخذ قراميد مغشاة ذهبا وفضة في قبته بقصر الزهراء أنفق عليها مالا جسيما ، وجعل سقفها صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة تستلب الأبصار ، وجلس فيها إثر تمامها يوما لأهل مملكته ، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك مع مايتصل به من البدائع الفتانة هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟ فقالوا لاوالله ياأمير المؤمنين ، وإنك لأوحد في شأنك كله وماسبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ، ولاانتهى إلينا خبره ، فأبهجه قولهم وسره ، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد ، وهو ناكس الرأس ، فلما أخذ مجلسه قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على سبداعه ، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له والله ياأمير المؤمنين ماظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولاأن تمكنه من قيادك هذا التمكين ، مع ماآتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين ، فانفعل الناصر وقال له انظر

ماتقول ، وكيف أنزلتني منزلتهم قال نعم أليس الله يقول ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون .. ﴾ [1] الآية ، فوجم الخليفة وبكى خشوعا لله تعالى وشكر القاضي وأمر بنقض السقف الذهبي . [2]

فهل تعي النخبة السياسية والاقتصادية في المجتمعات الإسلامية هذا الدرس فتصرف الأموال نحو استصلاح الأراضي البور وبناء المصانع وتشييد المدارس والجامعات ومراكز البحث العلمي بدل إنفاق معظم الأموال على القصور والمظاهر الخادعة ، حتى يتيسر الأمن الثقافي والزوحي والغذائي والصناعي لأمة الإسلام فلاتأكل مالاتنتج ولاتلبس مالاتصنع ولاتظل تحت مطرقة التهديد بالتجويع والإعراء ...

وهل يدرك أصحاب الأموال أن في أموالهم الخاصة حقوقا عامة ، وأن الإسلام أوجب الحجر على السفهاء لهذا الحق ..

إن إيجاد الحوافز للعمل أمام الجمهور من ناحية ومنع النخبة السياسية والاقتصادية من الغلول هما السبيل لبناء اقتصاد سليم في العالم الإسلامي ، ولاشك أن البناء العقدي للأمة وحده الكفيل بإيجاد جمهور عامل ونخبة صادقة .

إن استمرار الاقتراض المرتهن باقتصاد ربوي عالمي أنهك عالمنا الإسلامي ، وإذا كان لايمكننا التأثير في نظام الاقتصاد العالمي لأننا أسرى داخله ، فإن بالإمكان إعادة بناء اقتصادنا المحلي إذا استفدنا من القيم الاقتصادية الإسلامية ، ووسّعنا الدائرة التي تؤثر فيها تلك القيم ، خاصة بعد

---

[1] الزخرف ٣٣ .

[2] الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٦ : ١٧٧ .

انهيار الإيديولوجيات التي خططنا لاقتصادنا على ضوئها منذ نصف قرن ، فلم تثمر خططنا سوى الإفلاس حيث لم تتحرك الجماهير للعمل ، ولم يصدق من النخبة إلا القليل .

إن إعادة البناء القيمي في عالم الإسلام لابد أن تتقدم على سائر محاولات الإصلاح السياسي والتربوي والاجتماعي والاقتصادي .. ومن دون ذلك لن نحوز على أي تقدم حقيقي ..

مشكلات دراسة تاريخ الاقتصاد الإسلامي :

لاشك أن سائر السياسات الاقتصادية في العالم الإسلامي مبنية على دراسة علم الاقتصاد كما يعبر عنه الاقتصاديون الغربيون ، حيث اعتبر علم الاقتصاد من العلوم الحديثة التي نشأت في أحضان الحضارة الغربية واعتبر آدم سميث أحد مؤسسي علم الاقتصاد الرأسمالي في حين اعتبرسان سيمون من أوائل الكتاب في الاقتصاد الاشتراكي ، ولم يفطن علماء الاقتصاد المحدثون والمعاصرون وخاصة من المسلمين إلى جدوى البحث في تأريخنا الاقتصادي عن تطبيقات اقتصادية أو في تراثنا عن نظريات اقتصادية ، رغم تخبطنا في سياسات اقتصادية منقولة عن تجارب الغرب أخفقت في إحداث تنمية حقيقية في المجتمعات الإسلامية واكتفت بنقل نتائج التكنولوجيا الغربية دون المشاركة في أسرارها وأبحاثها مما يطمن العالم المتقدم إلى احتفاظه بأسواق العالم الإسلامي غير المنتج لتسويق بضائعه المتنوعة . ولعل علماء الاقتصاد في العالم الإسلامي لم يخطر ببالهم استقراء التراث الإسلامي الاقتصادي ، ولو فعلوا لبهرتهم النتائج ، فإن أول أمة عرفت التخطيط الاقتصادي نظريا وعمليا هي أمة الإسلام في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) عندما ألف الفقيه أبو يوسف القاضي للخليفة العباسي هارون الرشيد (حكم بين ١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) كتاب الخراج وهو أقدم كتاب في المالية العامة يصل إلينا ، وقد سبقه تاريخيا كتاب مفقود في الخراج وضعه

أبو عبيد الله معاوية بن يسار وزير المهدي الخليفة العباسي (حكم بين ١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) ولم تكن هذه المساهمات المبكرة في الدراسات المالية والاقتصادية مجرد طرح نظري بعيد عن الواقع بل كانت تهدف إلى ترشيد الواقع ، فكان معاوية بن يسار مسؤولا عن السياسة الاقتصادية في أكبر دول العالم آنذاك ، وكان أبو يوسف قاضي قضاة الرشيد في العصر العباسي الذهبي ، وقد ألف كتاب الخراج بناءا على طلب الخليفة الرشيد مما يدل على معرفة المسلمين المبكرة بالتخطيط الاقتصادي أفلا يستغرب بعد ذلك أن الأمة التي سبقت الأمم إلى التخطيط الاقتصادي صارت اليوم تعاني من الفوضى وعدم سلامة التخطيط الاقتصادي ولم تتوقف جهود العلماء المسلمين من الفقهاء والكتاب معا بعد محاولة معاوية بن يسار وأبي يوسف القاضي ، بل استمرت المؤلفات في الخراج والمالية تتعاقب في الظهور حتى بلغت في فهرست ابن النديم ستة وعشرين مؤلفا في المالية منها ستة عشر مؤلفا في الخراج اعتبارا من حفصوية الذي اعتبره ابن النديم أول من ألف في الخراج كتابا ، وهو من طبقة الكتاب . وعلى أية حال فقد مضى الفقهاء من ناحية والكتاب العاملون في دواوين الدولة يؤلفون في المالية العامة ، ويضيف اللاحق إلى السابق في عصور الازدهار الحضارية من تاريخ المسلمين ، وهي الفترة التي تقابل العصور الوسطى الاوربية (٥٠٠ ـ ١٥٠٠ م) حيث لانجد لدى الغربيين أية مساهمة في تاريخ الفكر الاقتصادي . ولاشك أن دراسة الواقع الاقتصادي في تاريخ الإسلام سيقدم توضيحات مهمة لكيفية مجابهة أسلافنا للمشكلات الاقتصادية ، وتكشف عن القيم والنظم الاقتصادية ومدى الاستفادة منها في حياتنا المعاصرة . على أن مثل هذه الدراسة للتأريخ الاقتصادي ليست سهلة ميسورة بل تحتاج إلى باحثين من مستوى عال للقيام بتمحيص المعلومات التي تقدمها المصادر القديمة ونقدها . لأن التسليم بما تورده المصادر دون نقد عميق واع سوف

يوقع الباحثين في تناقضات ومشكلات عويصة . ورغم أن المقام لايتسع للدخول في تفصيلات الموضوع ولكن لابد من التنبيه إلى بعض المشكلات التي ستواجه دراسات التأريخ الإسلامي الاقتصادي ؛ منها مايتعلق بصحة الأرقام والإحصائيات القديمة التي تذكرها المصادر ، فقد ذكر القلقشندي [١] : أن الخليفة المقتدر خلف في بيت المال عند وفاته سنة ٣٢٠ هـ مبلغا يزيد على ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار (ستين مليون دينار) فهل يمكن التسليم بهذا الرقم الضخم مع أن الواقع التأريخي لعصر المقتدر يوضح شدة الأزمات المالية التي عصفت بالخليفة المقتدر نفسه لعجزه عن دفع المرتبات .

ويذكر ابن دقماق : [٢] أن الخليفة المعتضد ترك في بيت المال حين وفاته سنة ٢٩٨ هـ مبلغ ٩٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ومعروف من دراسة الواقع التأريخي أن مثل هذا الوفر يعتبر مستحيلا. لذلك ذكر الدكتور عبد العزيز الدوري أنه ترك عشرة ملايين دينار فقط . [٣]

ومن الأمثلة التي تشكك في صحة الأرقام مايتعلق بواردات مصر إلى العاصمة بغداد ففي زمن المنصور (ت ١٥٨ هـ) بلغت ٢,٨٣٤,٥٠٠ دينار [٤] ، في حين هبطت في عصر المتوكل (ت ٢٤٧ هـ) أي خلال قرن واحد إلى مائتي ألف دينار [٥] ، أي بنسبة ١١٤ هذا مع تدني القوة الشرائية للدينار عما كان عليه زمن المنصور . وإذا قارنا ذلك مع خراج مصر زمن أحمد بن

---

١ مآثر الانافة ٣ : ٣٦٥ .

٢ الجوهر الثمين ق ٢٤ ب .

٣ الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٣٧١ .

٤ مؤلف مجهول : العيون والحدائق ٣: ٢٣٠ .

٥ ابن الطقطقي : الآداب السلطانية ٢٣٨ .

طولون والبالغ ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار [١] يتبين أن ثمة احتمال قوي في سقوط صفر من المليونين زمن المتوكل . أما الاحتمالات الأخرى فهو عدم دقة المصادر في النقل عن بعضها فربما يذكر الرقم دون تمييز بالدراهم أو الدنانير فيتبرع أحد المؤرخين بالتمييز دون دليل ، فيقع التضارب في الإحصائيات والأرقام ، أو التحريف والتصحيف الكثير في مصادرنا التراثية لعدم العناية بتحقيقها علميا مما يجعل الباحث يحتار أمام التعارض والتناقض .

ومن ذلك أن صاحب كتاب (العيون والحدائق) يذكر أن يعقوب الصفار أرسل إلى الخليفة المعتضد العباسي سنة ٢٨٦ هـ مبلغ ١٤ مليون درهم في حين يذكر الطبري وابن كثير أن المبلغ هو أربعة ملايين فقط [٢] والرقم الأخير ينسجم مع أرقام المبالغ التي أرسلت إلى المعتضد في السنوات الأخرى .

وقد ذكر سبط ابن الجوزي أن إجمالي الخراج السنوي لمصر في حكم أحمد بن طولون يقارب ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار [٣] في حين يذكر ابن تغري بردي أن سائر نفقات مصر والشام خلال حكم أحمد بن طولون تقارب ٢,٥١١,١٠٠ دينار [٤] بمعنى أن إجمال الإنفاق طيلة حكمه يقارب نصف الخراج السنوي فقط وهكذا يقع التضارب بين المصادر . والاعتماد على الأرقام قد يوهم بوجود ظواهر اقتصادية خطيرة ، ومع ذلك فإن المصادر

---

١ البيحاني : أشعة الأنوار ١ : ٤٢٧ .

٢ راجع العيون والحدائق ٤ : ١٥٨ وتاريخ الطبري ١٣ : ٢١٨٨ (طبع دي غويه) ، والبداية والنهاية لابن كثير ١١ : ٨٠ .

٣ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ١٠ : ق ٥٧ أ .

٤ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٣ : ١٢ .

التاريخية لم تشر إليها إطلاقا ، فماذا يفعل دارس التاريخ الاقتصادي ؟ لقد ذكر الأبشيهي أن الرشيد كان ينفق على طعامه ١٠,٠٠٠ درهم يوميا [١] في حين ذكر العيني أن ثمن الجزور في خلافة الرشيد يبلغ ٤٠,٠٠٠ درهم [٢] أي أربعين ضعف نفقات الرشيد على الطعام ويلاحظ أن نفقات المأمون اليومية بلغت ٦،٠٠٠ دينار بسعر صرف ١٥ درهم لكل دينار [٣] أي عشرة أضعاف نفقات الرشيد ألا يستنتج الباحث وجود تضخم مالي في عصر المأمون ؟ هذا ماتوحي به الأرقام أما الواقع التأريخي فلايشير إلى ذلك .. ثم ماذا يفعل الباحث الاقتصادي عندما تتطابق أرقام النفقات الخاصة للخلفاء في عصر الرشيد والمنتصر والمستعين والمعتز فتقف عند رقم ١٠,٠٠٠ درهم في اليوم [٤] لاتزيد ولاتنقص ، مع أن الرشيد حكم العالم الإسلامي في قارتين هي آسيا وأفريقية في حين حكم المستعين بغداد وحدها فهل يقدر على مثل نفقة الرشيد ؟ أم هو الوهم في النقل وقع فيه المؤرخون القدامى ؟ ومن المفارقات الغريبة أن إجمالي رواتب الجند في خلافة المستعين بلغ سنة ٢٤٨ هـ ٢،٠٠٠،٠٠٠ (مليوني دينار) وبلغ سنة ٢٥٢ هـ ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (ماتني مليون دينار) [٥] وقد يعلل ذلك بوقوع تضخم نقدي لكن هذا التعليل ساذج إذ لايمكن أن يكون التضخم (مائة ضعف) . ولكن

---

١ المستطرف ٢ : ٣٤١ .

٢ عقد الجمان ١٣ : ق ٢٣٥ أ .

٣ ابن الطقطقي : الآداب السلطانية ص ٢٠٧ ، وقدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة (طبعة دي غويه) ص ٢٣٧ .

٤ الأبشيهي : المستطرف ٢ : ٣٤١ ، والمسعودي : مروج الذهب ٤ : ١٩٠ .

٥ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢ : ٣٢٧ ، ٣٣٥ وتاريخ الطبري ١٢ : ١٦٨٥ .

مشكلة تعارض الأرقام وتضارب الإحصائيات القديمة لن تعيق دراسات التأريخ الإسلامي الاقتصادية فالصبر والدأب والوعي يكفلون الوصول إلى رسم المسيرة التأريخية الاقتصادية لأمتنا مما يضيف رصيدا طيبا إلى معلومات المصادر المتخصصة بالمالية العامة والمتمثلة بكتب الأموال والخراج .

إن الدراسات الإسلامية الاقتصادية المعاصرة خطت خطوات طيبة في شرح معالم النظام الاقتصادي من خلال النصوص الموحى بها في الكتاب والسنة ، وهي بحاجة إلى استقراء دراسات الاقتصاديين من الفقهاء ومن طبقة الكتاب وإلى استقراء واقع التأريخ الاقتصادي للعالم الإسلامي . إن هذه الدراسة التأريخية ستكشف عن حقائق هامة مؤثرة على نظرتنا المعاصرة منافية للعوامل السلبية التي يلصقها بعضنا بالإسلام وتراثه واعتباره عامل تأخير وتعويق أمام نهضة الأمة ...

إن البعض يرى في الإيمان بالقضاء والقدر سببا لهزائمنا الحضارية بل والعسكرية وهذا البعض يغمض عينيه عن الحقائق التأريخية الدامغة ، فالمؤمنون بالقضاء والقدر سحقوا تاريخيا أعظم امبراطوريتين عاصرتهم؛ الفرس الساسانيون والروم البيزنطيون .. وأشادوا أعظم حضارات العالم القديم منظمين الإرواء بطريقة رائعة مستخدمين في ذلك هندسة متقدمة جدا كما في تنظيم مياه حدائق غرناطة « جنراليف » وكما في تنظيم الري في منطقة السواد جنوب العراق حيث أنشئت القنوات التي قدر عددها بمائة ألف قناة .

إن دراسة خطط بغداد وقرطبة وغرناطة والقاهرة تكشف عن القدرة العالية على الإبداع وحسن التخطيط والتنظيم وبالمقارنة مع مدن أوربا في العصور الوسطى يبدو الفرق ضخما حيث كان ببغداد أربع مستشفيات في العصر العباسي الثاني في حين لم يكن بباريس سوى طبيب واحد ، وكانت شوارع

بغداد مرصوفة بالآجر مضاءة بقناديل الزيت في حين كانت شوارع باريس موحلة مظلمة ..

ولو درسنا موارد الدولة الإسلامية في العصر الذهبي لأدركنا مدى الازدهار التجاري والزراعي والصناعي ؛ وهذا كله عندما كانت الأمة متمسكة بعقيدتها الدينية وشريعتها السماوية .

الفصل السابع

أثر العلماء في بناء المجتمع الإسلامي

قال تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس مايشترون)[1] . ألقى الإسلام مسؤولية عظمى على العلماء ، فهم بحكم وعيهم بمضامين الوحي الإلهي ، وفهمهم لأحكام الشريعة ومقاصدها ، واطلاعهم على نصوص الكتاب والسنة ، ومعرفتهم بشروح علماء السلف لها ، وقدرتهم على توجيهها والاستنباط منها ، وحل معضلات الحياة العصرية على ضوئها ، لهذا كله تعظم مسؤوليتهم كلما اشتدت الحاجة إليهم ، وهي تشتد وتقوى بانحسار الوعي الإسلامي العام في المجتمع ، وفقدان القيم الدينية والأخلاق المبنية عليها ، وضعف الأواصر بين الناس وبين الأصول الإسلامية المتمثلة بـالكتاب والسنة ، وانحدار مستوى اللغة العربية السائدة مما يولدالعجز أو الضعف عن فهم الأصول . ولاشك أن مهمة العلماء المتخصصين في دراسة الإسلام وشريعته لاتنحصر في الفتاوى التي تصدر عنهم في بيان الحلال والحرام من أحكام الشريعة في الأحوال الشخصية وبعض الحدود والعقوبات وبعض أحكام المعاملات ، بل تتعدى ذلك إلى تثبيت العقيدة الإسلامية

---

[1] آل عمران ١٨٧ .

والمعاني الإيمانية والكليات التي تشعر المسلم بأهمية الإسلام في ملءثقافته وإشباع روحه وتحديد هويته ورسم معالم حياته الخاصة والعامة ، وجعله يحس بالاكتفاء والاستغناء عن (الإيديولوجيات) الجاهلية التي سيطرت على أرجاء المعمورة وغزت العالم الإسلامي في عقر داره . من أجل ذلك لابدأن تقوم النخبة المؤمنة من علماء الأمة بإعادة بناء ماتهدم من حصون المجتمع الإسلامي وبثِ روح النهضة فيه ودفعه إلى طريق الحضارة والتقدم ، ولابد أن تكون هذه النخبة على قدر كبير من الوعي العميق والإحاطة الشاملة بنصوص الكتاب والسنة مع البصيرة بواقع الحياة الحديثة ، وعدم الانغلاق والاعتزال أو الجنوح إلى الروحية الاعتزالية بحجة القيام بالعبادات الفردية كنوافل الصلاة والصوم والذكر والتفكر والتدبر ، فهذه العبادات وإن أثيب صاحبها لكنها مفضولة إذا قورنت بالدعوة إلى الإسلام وتعميق معاني الإيمان في نفوس الناس وخاصة في هذا العصر الذي طغت فيه الجهالة بالإسلام وتعاليمه وانحسر أثر الإيمان عن الحياة ، وحل التناقض والثنائية في نفس الفرد المسلم وفي مؤسسات المجتمع الإسلامي ، فلاغرابة أن تعظم مكانة الدعوة إلى تجديد الإيمان وتأسيس المجتمع على قواعده . يقول ابن قيم الجوزية « والعالم الذي قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر ، مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح [1] . وقد كتب عبد الله العمري - أحد العباد الصالحين - إلى مالك بن أنس يحضه على الانفراد والعمل ، فكتب إليه مالك : «إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق ، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له

---

[1] ابن القيم : عدة الصابرين ٩٣ .

في الصوم ، وآخر فتح له في الجهاد ، فنشر العلم من أفضل أعمال البر ، وقد رضيت بما فتح لي فيه ، وماأظن ماأنا فيه بدون ماأنت فيه ، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر »[1] ويقول أبو حامد الغزالي : اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان ، فليس خاليافي هذا الزمان عن منكر ، من حيث التقاعد عن إرشاد الناس ، وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد ، فكيف في القرى والبوادي » حتى قال : «وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم ، وكذا في كل قرية ، وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه ، وتفرغ لفرض الكفاية أن يخرج إلى من يجاور بلده .. ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ... فإن قام بهذا الأمرواحد سقط الحرج عن الباقين ، وإلا عم الحرج الكافة أجمعين ، أماالعالم فلتقصيره في الخروج ، وأما الجاهل فلتقصيره في ترك العلم »[2] .

ولاشك أن العالم يؤثر في الناس على قدر صلاحه وتقواه وعبادته وطاعته لله ، فهو إسلام يمشي على رجلين ، ونجم يسطع ضياؤه لينير الدروب أمام السالكين ، فلابد أن يأخذ نفسه بالحق ويقومها على الصدق ويغذيها بالورع ليكون بعمله داعيا إلى الحق قبل قوله ، ولئلا يكون في مخالفته للحق حجة عليه ، فيرد الناس كلامه لأنهم يقولون لو كان كلامه صدقا لأخذ نفسه به ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحماربالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يافلان مالك ؟ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟

---

[1] الذهبي : سير أعلام النبلاء ٨ : ١٠٢ .

[2] ابو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ٢ : ٢٩٩ .

فيقول بلى ، قد كنت آمر بالمعروف ولاآتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » . [1] فالعالم وطالب العلم الشرعي ينبغي أن تظهر على سلوكه وكلامه وسمته آثار حمله للأمانة الإلهية والرسالة المحمدية .. قال الإمام الأوزاعي : « كنا قبل اليوم نضحك ونلعب ، أماإذا صرنا أئمة يقتدى بنا ، فلانرى أن يسعنا ذلك ، وينبغي أن نتحفظ » . [2] وليس معنى هذا أن العالم لايخطيء ، فكل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ، ولكن معناه أن العالم يجتهد في مجاهدة نفسه والارتفاع بسلوكه ليكون قدوة صالحة للناس ، وإلا - كما يقول الإمام سعيد بن المسيب : « لو كان المرء لايأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى لايكون فيه شيء - يعني من العيب - ماأمر أحد بمعروف ولانهى عن منكر » . [3] ومن لوازم مخالطة العالم للناس وبيان الحق لهم أن يكون متصفا بسعة الأفق ورجاحة العقل والثقافة الشرعية والواقعية ، والصبر على أذاهم والرفق بهم ، وقد وصف الشيخ عبد القادر الجيلاني أمثال هؤلاء العلماءالدعاة بقوله : « يدلون الخلق ، ويصبرون على أذاهم ، مع دوام النصح لهم ، يبتسمون في وجوه المنافقين والفساق ، ويحتالون عليهم بكل حيلة حتى يخلصوهم مما هم فيه ويحملوهم إلى ربهم عز وجل » . [4]
ولاشك أن من دواعي نجاح العالم القيام بحقوق الناس والشفاعة لهم في استحصالها والنظر في مصالحهم ، فتبنِّي مصالح الأمة والدفاع عنهاوالاهتمام برعاية الفقراء وسد حاجة المحتاجين وإرشاد الأغنياء إلى

---

١ رواه البخاري في الصحيح ٤ : ١٤٧ .

٢ ابن كثير : البداية والنهاية ١٠ : ١١٩ .

٣ تفسير القرطبي ١ : ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

٤ عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني ٨٣ .

أعمال الخير وتبني المصالح الاجتماعية العامة والإنفاق عليها ، كل ذلك يجعل لأهل العلم مكانة في المجتمع وأثرا في توجيهه نحو مثل الإسلام العليا في الحياة . وقد كان الأئمة من علماء السلف ينبهون المسؤولين من حكام عصرهم إلى مصالح الرعية ويتلطفون في الوصول إليها ، فقد لاحظ الإمام الأوزاعي أن المرتبات التي تصرفها الدولة لأهل ساحل الشام لاتفي بحاجاتهم الضرورية مع أنهم يقفون على ثغور الإسلام البحرية المطلة على البحر المتوسط ، فما كان منه إلا أن كتب إلى الخليفة المهدي العباسي يقول : « أما بعد ، ولى الله لأمير المؤمنين أموره بما ولى به أمور من هدى واجتبى ، وجعلهم به مقتديا ، فإن أمير المؤمنين أصلحه الله كتب إلي ألا أدع إعلامه كل ما فيه صلاح عامة وخاصة ، فإن الله عز وجل يأجر على من عمل به ، ويحسن عليه الثواب ، وأنا أسأل الله عز وجل أن يلهم أمير المؤمنين من أعمال البر مايبلغه به عفوه ورضوانه في دار الخلود ، وقد كان أمير المؤمنين - حفظه الله - قصر بأهل الساحل على عشرة دنانير في كل عام سلفا من عطاياتهم ، وأمير المؤمنين -أصلحه الله - إن نظر في ذلك عرف أنه ليس في عشرة دنانير لامريء ذي عيال عشرة أو أدنى من ذلك أو أكثر كفاف ، ولو أجرى عليهم أمير المؤمنين - أصلحه الله - في أعطياتهم سلفا في كل عام خمسة عشردينارا .. ثم ذكر مكانتهم في حماية ثغور المسلمين البحرية ومايعانونه من حر الصيف وبرد الشتاء ويذكره بأنه راع ومسؤول عن رعيته.. ثم يقول : وقد قدم علينا رسول أمير المؤمنين - عافاه الله - بالعطية من النفقة والكسوة التي أمر أمير المؤمنين - عافاه الله - بقسمهافي أهل الساحل ، فقسمناها فيهم من دينار لكل رجل ودينارين ، وقل المال عن

اليتامى والأرامل فلم يقسم فيهم منه شيء .. وإن رأى أمير المؤمنين - أصلحه الله - أن يبعث بما يقسم فيهم فعل .. » [1] . وقدكانت رسائل الأوزاعي إلى خلفاء عصره تترى يذكر لهم فيها مايصيب الأمة من ضنك المعيشة أو اضطراب الأمن أو هجوم الأعداء عليهم ، كما فعل عندماغلت الأسعار بمكة فكتب إلى المهدي وكان وليا لعهد المنصور يطلب منه معونتهم وإلا هلكوا جوعا ويضرب له المثل بما فعل عمر بن الخطاب (رض) عام الرمادة عندما حلت المجاعة بالمسلمين . ولم يقتصر الأوزاعي على الدفاع عن حقوق المسلمين بل تعدى ذلك إلى حقوق بقية المواطنين الذميين ، فلما أجلى صالح بن علي (ت ١٥١هـ) والي الشام العباسي بعض نصارى أهالي جبل لبنان بجريرة بعضهم ، كتب إليه الأوزاعي يقول : « كيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وحكم الله تعالى (ولاتزر وازرة وزر أخرى) [2] وهو أحق ماوقف عنده واقتدي به ، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه » [3] . ومن يراجع ترجمة الأوزاعي في كتاب الجرح والتعديل للرازي يجد نماذج أخرى من هذه الرسائل التي تتبنى مصالح الرعية في سائر ديار الإسلام . فلاشك أن الأوزاعي في تبنيه لمصالح الأمة قدوة للعلماء ولطلبة العلم في كل زمان ومكان ، وليس هو النموذج الوحيد ، فما أكثر رجالات هذه الأمة الصالحين للاقتداء بهم ، فقد كان القاضي أبو يوسف ممن اهتم

---

١ ابن أبي حاتم : تقدمة الجرح والتعديل ١٩٤ .

٢ الأنعام ١٦٤ .

٣ المتقي الهندي : كنز العمال ٥ : ٧٥٩ حديث رقم ١٤٣٠٤ نقلاً عن ابن سعد

بالمستضعفين من الفلاحين ودافع عنهم وطالب بتحقيق العدالة في معاملتهم ومحاسبة الجباة إذا أساءوا إليهم وذلك في كتاب «الخراج» الذي ألفه للخليفة العباسي هارون الرشيد .

وكان العلماء هم قادة المسلمين في أوقات الشدة والنوازل والأخطار وقد برهن العديد منهم على جدارتهم وشجاعتهم في قيادة الناس ، من ذلك أن الفقيه أبا القاسم مسعود بن محمد الخجندي الذي عاش في أصبهان لما رأى قوة الباطنية وتهديدها لأهل أصبهان بعد أن اغتالت نظام الملك وولده فخر الملك وشحنة أصبهان ، حتى أصاب السكان الخوف والهلع ، قام هذا العالم بجمع وجهاء أصبهان وحشد الناس بالأسلحة وأمرهم بحفر الأخاديد لحرق الباطنية [1] ، وبذلك عاد الأمان الى أصبهان وانحسرت شرور الباطنية بجهود هذا الفقيه الذي قام بسد الثغرة الأمنية في بلده عندما انشغلت الدولة عنها بمشاكلها الأخرى .. [2]

ولاتنحصر نماذج العلماء الربانيين في عصور الاسلام الذهبية الأولى بل تمتد الى الأجيال اللاحقة .. فهذا ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) الذي عاش في دولة المماليك البحرية يقف في مواجهة المرسوم السلطاني بمصادرة أملاك أهل الذمة داخل البلاد (٦٤٨ ـ ٧٨٤ هـ) انتقاماً لما صنعه الفرنج في هجومهم على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ فنصح ابن كثير السلطان بتعطيل القرار لمخالفته الشريعة والتزم السلطان برأيه . [3]

وكان علماء السلف يحثون بعضهم ويتواصون بالبُعد عن طلب المال

---

١ هذا اجتهاد منه وإلا فإن قتل الأعداء بالحرق لايجوز .

٢ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٣١٥ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١٩ : ٤٠٤ .

٣ شمس الله محمد صديق : منهج ابن كثير وموارده ١ : ٣٤ .

والجاه والحرص على المناصب ، وذلك لأن الحرص على الدنيا يذل العلماء ، ويضعف مكانتهم بين الناس ، ويشكك في صحة أقوالهم ودعوتهم ، ويصرف الأمة عنهم ، لذلك فضل كثير من علماء السلف أن يمارسوا مهنا حرة ، تسد حاجتهم ، وتمنع وقوعهم في ذل السؤال ، وتنأى بهم عن الضعف أمام الأقوياء المحسنين ، ليجرؤا على قول الحق لهم وقد قال تعالى ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس مايشترون ﴾ [1] ، وقد وجد الإمام الحسن البصري بعض العلماء واقفين على باب ابن هبيرة الوالي على العراق فنهرهم وقال : « فضحتم العلماء فضحكم الله » . وكان سفيان الثوري يقول : «المال داء هذه الأمة ، والعالم طبيب هذه الأمة ، فإذا جر العالم الداء إلى نفسه، فمتى يبريء الناس ؟ » . فينبغي لطالب العلم أن يكون عزيزا بالله مستغنيا عن الخلق ، قادرا على الكسب ، بعيدا عن السؤال ، قانعا بالقليل ، لايغرق نفسه وأهله بالكماليات ، فتشتد حاجته للمال فيطلبه من كل طريق فيفقد مكانته بين الناس . ومن منهج علماء السلف الابتعاد عن مجالسة أهل الأهواء والبدع لئلا يغتر بهم العامة فيحسبونهم على خير ، وكثيرا ماكان العلماء يحذرون من أهل الأهواء ويقاطعونهم ويأمرون الناس بمقاطعتهم ، قال الإمام أحمد لمسدد ابن مسرهد : « ولاتشاور أهل البدع في دينك ، ولاترافقهم في سفرك » . وكانوا يحاصرون الأفكار المخالفة للعقيدة الإسلامية يقول سفيان الثوري : « من سمع ببدعة فلايحكها لجلسائه ، لايلقها في قلوبهم » [2] ، ويقول الحافظ الذهبي معقبا : « أكثر أئمة السلف على هذا

---

[1] آل عمران ١٨٧ .

[2] الذهبي : سير أعلام النبلاء ٧ : ٢٦١ .

التحذير ، يرون أن القلوب ضعيفة ، والشبه خطافة » . [1] وأما إذا شاعت الأفكار المخالفة للعقيدة الإسلامية بين المسلمين فلابد للعلماء من مناقشتها وتفنيدها وبيان بطلانها ، على أن يتولى ذلك أصحاب الأقلام القوية والحجج المتينة والاطلاع الواسع ، فكم من مدافع عن العقيدة سرد الشبهات وعجزعن ردها فكأنه أعان على نشرها وانتصر لها بعجزه عن تفنيدها .

إن الثقافة الواسعة والبصيرة النافذة لاتكون إلا لمن وثق صلته بالكتاب والسنة وفقههما ، وعرف الواقع عن كثب ، وإلا فكيف يبين العالم حكم الله في المعاملات وهو لايعرف إلا المعاملات التي كانت تجري في القرون الأولى ، أما قواعد المعاملات في هذا العصر فلايعرف عنها شيئا ، وكيف يراعي قواعد الشريعة ومقاصدها العامة في رعاية مصالح الأمة إذا لم يكن على صلة وعلم بالواقع .

وقد وقع البعض من طلبة العلم في التشدد والتنطع حتى أنسوا الأمة يسر الدين وسماحة الشريعة ، وتساهل آخرون حتى أضاعوا حدود الإسلام ونقضوا قواعده ، وقد قال ابن تيمية : « وأهل السنة والعلم والإيمان ، يعلمون الحق ، ويرحمون الخلق » ، وعندما سئل سفيان بن عيينة عن الزهد قال : الزهد فيما حرم الله ، فأما ماأحل الله فقد أباحكه الله ، فإن النبيين قد تزوجوا وركبوا ولبسوا وأكلوا ، لكن الله ينهاكم عن شيء فانتهوا عنه » . [2] وكان ابن الجوزي يصف أهل العزلة من المتظاهرين بالزهد البعيدين عن مواجهة مشكلات المجتمع المنقطعين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله : « الزهاد في مقام الخفافيش ، فقد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن

---

١ المصدر السابق ٧ : ٢٦١ .

٢ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٨ : ٤١٣ .

نفع الناس ، وهي حالة حسنة إن لم تمنع خيرا من لزوم جماعة واتباع جنازة وعيادة مريض ، إلا إنها حالة الجبناء ، فأما الشجعان فهم يتعلمون ، ويعلمون ، وهذه مقامات الأنبياء عليهم السلام » ، وقال ابن القيم : «الشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته ، وقوفه في الصف ساعة ، وجهاده أعداء الله ، أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع » ، وقال الحسن البصري لفرقد السبخي ـ وكان من الزهاد ـ : ياابن أم فرقد إن التقوى ليس في هذا الكساد ، إنما التقوى في القلب ، وصدقه العمل » . وقد أوضح الحسن البصري وسطية الإسلام وموازنته بين التشدد والتساهل فقال : « دين الله وضع فوق التقصير ودون الغلو » .

إن بعض المنتسبين إلى العلم يتتبع الرخص ويأخذ بها ، ويعيش بعيدا عن الأمة ومشكلاتها ، فينصرف إلى نفسه وراحتها ، ويعرف الحق فلا ينصره ، ويبصر المنكر فلاينكره ، وقد نسي هؤلاء أن العالم ليس كسواه في الترخص لنفسه ، بل عليه أن يأخذ بالعزيمة لأنه موضع قدوة ، فلو ضل عن الحق وتابع الباطل وانتصر للأهواء فإن عامة الأمة تتأثر به فيحمل أوزار من يضل بسببه مع أوزاره . فلابد للعالم من بيان الحق وتوعية الأمة بمقاصدالشريعة وتعريفها بأحكام الدين وعقيدة المسلمين .. قال الإمام أحمد بن حنبل : «إذا أجاب العالم تقية ، والجاهل بجهل ، فمتى يتبين الحق ؟ » .

لقد كان للعلماء أثر كبير عبر مراحل التاريخ الإسلامي في نشر تعاليم الإسلام ونقلها عبر الاجيال المتلاحقة حتى انتهت إلينا ، وبذلك حافظوا على هوية المجتمع الإسلامي وخصائص الشخصية الإسلامية . وقد أفاد علماء السلف من كل الوسائل المتاحة في عصورهم لنشر العقيدة وتعاليم الشريعة فلم يقتصروا على وسيلة واحدة ، فكانوا يقومون بفتح المدارس والتعليم فيها ، وإنشاء المكتبات وفتحها أمام طلبة العلم ، وكان أغنياؤهم يجرون الجرايات على طلبة العلم ليتفرغوا للعلم وطلبه ، وقد تعاهد أبو حنيفة

أبا يوسف سبع عشرة سنة ينفق عليه حتى حمل من العلم مانفع به دولة الإسلام في عصر الرشيد .[1] وقد أرسل الخليفة المتوكل للإمام أحمد بن حنبل عشرة آلاف درهم ، مع أحد حجبته فامتنع الإمام أحمد عن أخذها فلما ذكره الحاجب بأن عدم أخذه للمال قد يؤدي إلى الوحشة بينه وبين الخليفة ، قام بتوزيع المبلغ كله على المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم فلم يبق منها درهم واحد ، ولم يعط لأهله منها شيئا وهم في غاية الفقر والجهد .[2] وكان أغنياء العلماء يصلون فقراءهم ، فكان الليث بن سعد يصل العديد من علماء عصره بالمال ، وكان يمتلك أرضا زراعية وأموالا كثيرة فكان ينفق منها على أهل العلم .[3]

ومن المجالات التي خدمها علماء السلف العناية بالعلوم الإسلامية والتأليف فيها وصرف الأموال الطائلة في هذا السبيل ، سواء بالقيام بالرحلات العلمية لجمع العلم أو بجمع الكتب الكثيرة في مكتباتهم والإفادة منها في التأليف وقد بارك الله في جهودهم فأثمرت مكتبة هائلة في شتى علوم الإسلام والعربية رغم أن مافقد منها أكثر مما وصل إلينا .

وكان العلماء يعقدون الحلقات العلمية في المساجد ويدرسون فيها ، كما كان لبعضهم دروس وندوات في بيوتهم . وكان العالم إذا اكتشف موهبة وملكة عند أحد طلبة العلم تعاهده بالرعاية الخاصة وأوصى به أصحابه من علماء عصره ، فأثمر ذلك تتابع ظهور القيادات العلمية ذات المستوى العالي في المجتمع الإسلامي عبر تاريخه الطويل .

---

[1] الخطيب : تأريخ بغداد ١٤ : ٢٤٤ ـ ٢٥٢ .

[2] الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١ : ٢٦٧ ـ ٦٢٨ .

[3] المصدر السابق ٨ : ١٣٤ .

واستخدم علماء السلف المكاتبة والرسائل لتبادل المعلومات فيما بينهم وتقديم النصح لحكام عصرهم ، وهكذا استنفد العلماء الوسائل المعروفة للاتصال في عصرهم . وكانوا يتنقلون بين القرى والبوادي لتعليم الأعراب والفلاحين تعاليم الإسلام .

ولاشك أن وسائل الاتصال في هذا العصر قد تنوعت وقويت وصار تبليغ العقائد والأفكار يتم عن طريق الإذاعات والتلفزة والصحافة الواسعة الانتشار والمؤلفات ذات المواصفات الفنية العالية ، مما يستتبع ضرورة نشر الدعوة الإسلامية في هذا العصر بالوسائل الحديثة ، إذ لايعقل أن يستغل الأعداء كل إمكانيات العصر ويقتصر المسلمون في تبليغ دينهم على وسائل الاتصال الضعيفة التقليدية . ويعتمد نشر الفكر في هذا العصر على الدعاية المرتكزة على دراسات علوم الإعلام والنفس والاجتماع وغيرها مما يحقق لها النجاح والانتشار ، ومن واجب العلماء أن يفيدوا من ثمرات العلم والتقدم ومن علوم العصر في نشر العقيدة الإسلامية .

....

وسوف نتابع في الجزء الثاني ، دراسة لثلاثة نماذج تتناول شرائح اجتماعية من النخبة والعامة ، إحداها تتناول **النخبة وهم فقهاء القرن الأول الهجري في المدينة المنورة.**

والثانية تتناول **العامة في بغداد في أواخر العصر العباسي والعهد الايلخاني** .

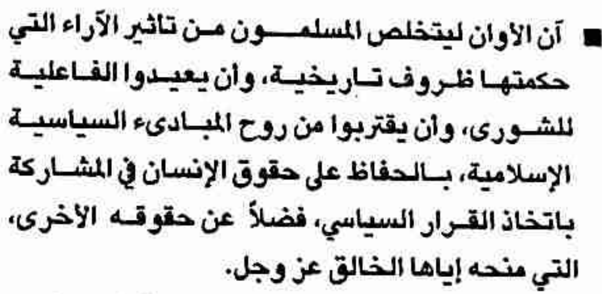
والثالثة تتناول **المجتمع والسلطة في الأندلس في مرحلة التدهور والسقوط.**

وكل نموذج يمثل مفارقة واضحة مع الآخر رغم أن دائرة القيم واحدة .

الفهـــرســـت	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
٩ لسـنة ١٩٩٤م

الترقيم الدولي : ١ - ٠٠ - ٢٣ - ٩٩٩٢١



■ آن الأوان ليتخلص المسلمـــون مـن تأثير الآراء التي حكمتها ظروف تـاريخيـة، وأن يعيدوا الفـاعليـة للشـورى، وأن يقتربوا من روح المبـادىء السياسيـة الإسلامية، بـالحفاظ على حقوق الإنسان في المشـاركة باتخاذ القـرار السياسي، فضلاً عن حقوقـه الأخرى، التي منحه إياها الخالق عز وجل.

■ محاولات الإصــلاح والثـورة في عـــالمنــا الإسلامي المعاصر، لم تحقق زيادة الوعي لصالح التواصل بين النـاس، واحترامهم لبعضهم، ومحبتهـم لـلآخـرين، وتحقيقهم للعدل.

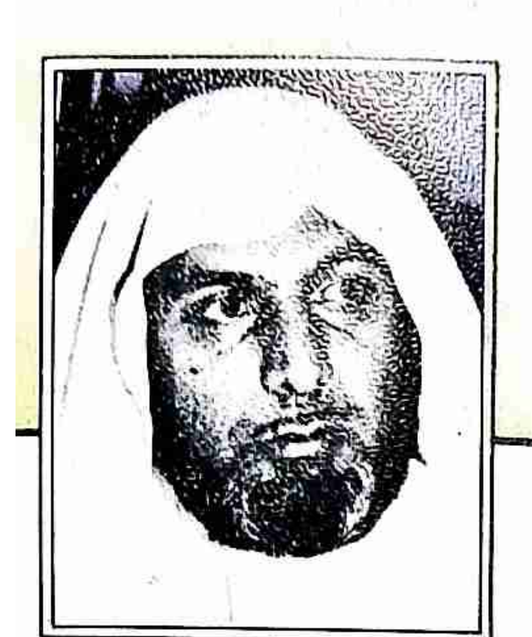
■ إيجاد الحوافز للعمل أمـام الجمهور من ناحية، ومنع النخبـة السيـاسيـة والاقتصـاديـة من الغلـول، هما السبيل لبنـاء اقتصاد سليـم في العالم الإسـلامي.. إن البنـاء العقدي لـلأمـة، وحده الكفيل بإيجاد جمهـور عامل، ونخبة صادقة.

■ الإحساس بقدسية الحقـوق والواجبات، يولِّد ضبطاً اجتماعيـاً عاليـاً، ومـواءمـة بين «الأمة» و«السلطـة السياسية»..

■ لايزال الطرح الجزئي للمسالة الدينية، هو الغالب على الساحة الإسلامية حتى الوقت الحاضر، ولايغيب عن أذهاننـا سعة المشكـلات المتراكمة بسبب هـذا الطرح، وبسبب التأكيد على «المظهر» أكثر من «الجوهر»..

■ إن عمليـة نقل النظم الجاهــزة، والتي تبلـورت عبر قرون عـديدة من التطور السياسي في عـالم الحضـارة الغربيـة، بشقيه الديموقـراطي الرأسمالي والماركسي، لم يولد سوى الفجوة بين الأمة والنظام.

■ العجب من مسلمي هــذا الـزمــان! يحملـون على من خـالفهم المخـالفـة اليسيرة في الأمـور الاجتهـاديـة، ويعادونه أكثر من معـاداتهم لأهل البدع الغليظة، بل وأهل الكفر الصراح..



الدكتور أكرم ضياء العمري

● من مـــواليـد الموصل، شمالي العـــراق (١٩٤٢).

● تخرج في جامعة بغـداد، كلية التربية، (١٩٦٣).

● حصل على الـدكتوراه من جـامعة عين شمس (١٩٧٤)، في التاريخ الإسلامي.

● عمل مـدرسـاً بكلية الآداب، بجـامعـة بغـــــداد (١٩٦٦). ورئيســـاً لقسم الـدراسات العليـا، وللمجلس العلمي، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

● يعمل حالياً أستـاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

● له عدة مؤلفات وتحقيقات منشورة في التاريخ الإسلامي، والسنة النبوية، إلى جـانب بحـوث ودراسـات متعـددة في الثقافة الإسلامية.



الترقيم الدولي: ١٠-٠٠٠-٢٣-٩٩٦٨٩

طباعة دار الشرق